مصارع العشاق

مصارع العشاق.. حكايات مختارة
جعفر بن أحمد بن الحسين السرَّاج
قدم لها واختارها: أحمد رجب
الطبعة: ٢٠٢٣

العربية للاعلام والفنون والدراسات الانسانية والنشر

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر- الهرم – الجيزة - مصر
هاتف: ٣٥٨٦٧٥٧٦ ــ ٣٥٨٦٧٥٧٥
http://www.azhabooks.com
E-mail: info@azhabooks.com

بطاقة فهرسة أثناء النشر

السرَّاج ، جعفر بن أحمد بن الحسين. - قدم لها واختارها: أحمد رجب- مصارع العشاق.. حكايات مختارة

– الجيزة – أزهى، ٢٠٢٢

١٧٢ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ١ – ٦ – ٨٦٣٤٧ – ٩٧٧ - ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٢٢٥٤٧ / ٢٠٢٢

مصارع العشاق

حكايات مختارة

تأليف

جعفر بن أحمد بن الحسين السرَّاج

قدم لها واختارها

أحمد رجب

هذا كتابُ مصارعِ العُشاقِ صرعَتْهمُ يومًا نُوًى وفِراقِ تصنيفُ مَن لدَغ الفراقُ فؤاده وتطلَّب الرَّاقي فعزَّ الرَّاقي فإذا تصفَّحَه اللبيبُ رثى لهُم أسرى الهوى أَيِسوا من الإطلاقِ

جعفر بن أحمد بن الحسين السرَّاج

مقدمة

"ومن الحب ما قتل" مثل قديم يتداوله العشاق والذين يرثون لأحوال العشاق أو حتى أولئك الذين يسخرون منهم، وقد شاع المثل واستمر لأن الناس دائما يقعون في الحب، وغالبا ما يفشلون وتعاند الظروف حبهم، فيقعون صرعى للعشق، ولم يكن للجلد في العشق، أن يشوبه الأمل في الوصال والسعادة. فعلى الأغلب أن ينتهي بغير نتيجة، وأحيانا بالجنون فالموت، كما كان حال مجنون ليلى. بيد أن على قصة العشق التي تطمح إلى الخلود أن تدور بحكم الظروف حول الحرمان والخسارة ومحاولة تجاوزهما أو تحديهما بالإصرار القوي على الثبات.

لذلك يزخر التراث العربي بالكثير من قصص العشق التي انتهت بشكل يثير الشفقة ويدعو للحزن. ويلاحظ من يطالع كتب التراث العربي في هذا الشأن مدى تراكم هذا الكم من قصص الحب المتشابهة إلى حد كبير، لدرجة أنها تكاد تكون قصصا مستنسخة، تشير إلى بروز نمط أدبي سائد كان يسيطر على الحياة الأدبية العربية.

ومن أشهر الكتب العربية التي ترصد المآلات المأساوية للعشاق، كتاب "مصارع العشاق" لجعفر بن أحمد بن الحسين السراج البغدادي، كما أن دواوين الشعر العربي كلها تحمل أخبارا من هذه القصص وتقلباتها وتعبر عن أحوال العشاق.

ويتمثل غرض هذه المختارات في التذكير برائد أدبي كبير، ثم تقديم كتاب ممتع ومفيد يفتح نافذة للقارىء على أحد أبرز جوانب التراث الأدبي العربي.

وقبل أن نضع هذه المختارات بين يدي القاريء يجدر بنا أن نتوقف قليلا لتقديم نبذة عن الكتاب وصاحبه:

السراج:

صاحب الكتاب هو "جعفر بن أحمد بن الحسين"، ولِدَ في بغداد، في سنة ٤١٧هـ ، ولا يُعرَف الكثير عن سيرته، غير أنَّ أعماله تنبئ عن مكانته الأدبيَّة الرفيعة.

بدأ السراج دراسة الحديث النبوي وهو في سنٍّ صغيرة، وتتلمذ لدى أبي علي بن شاذان وأبي القاسم بن شاهين وأبي مُحَمَّد الخلال وأبي الفتح بن شيطا وأبي الحسن التوزي وأبي القاسم التنوخي وأبي نصر السِّجزي وعبد العزيز بن الحسن الضَّرَّاب وأبي القاسم الحِنَّائي.

سافر السراج إلى بلدان عديدة، وقضى معظم أسفاره بين الشام ومصر ومكة، واستقرَّ زمناً طويلاً في مدينة صور، ثُمَّ عاد إلى موطنه في بغداد. واشتهر بفضل كتابه «مصارع العشاق»، الذي يجمع فيه القصص والروايات الغزليَّة العاطفيَّة من الأدب العربي في العصر الجاهلي والإسلامي، قسَّمه الكاتب إلى اثنين وعشرين جزءاً أو فصلاً، يبدأ كل فصلٍ بقصيدة غزليَّة من تأليفه، والقصص المُضمَّنة في هذا الكتاب بعضها حقيقي غير أنَّ أكثرها على الأرجح خيالي، وتغلب على القصص العاطفيَّة

النزعة العفيفة وفي بعض الأحيان التصوفيَّة، باستثناء أبياتٍ نادرة في الكتاب.

ولم يكن نشاط ابن السراج وقفا على الأدب وحسب، فقد ألَّف السراج عدداً من الكتب الأخرى، جميعها في الفقه الإسلامي والأدب. وكان عالماً بالقراءات القرآنيَّة، متبحِّراً في علوم اللغة والنحو، ومن أشهر كتبه:"حكم الصبيان" و"مناقب الحبش"، وكتاب «أرجوزة في نظائر القرآن» (على عكس العنوان يتضمَّن الكتاب أرجوزتان). ونظم الكثير في الفقه، وفي المواعظ واللغة، وله شعره غزلي عذب.

وقد تُوفِّي جعفر بن أحمد السراج في الحادي والعشرين من صفر سنة ٥٠٠هـ عن عمر ناهز الثلاثة والثمانين عاما.

مصارع العشاق :

يعتبر كتاب "مصارع العشاق" أحد أهم المصنفات التراثية التي جعلت الحديث عن الحب والمحبين موضوعها الرئيس. وقد جمع السراج فيه كل ما وجده من أخبار العشاق الذين صرعهم العشق، على اختلاف صنوفهم وأنواعهم. وقد أورد قصص الكثير من الشعراء كالمجنون، وقيس بن ذريح، وجميل بثينة، على شكل شذرات متناثرة.

ويتألف هذا الكتاب في أصله من اثنين وعشرين فصلاً، جعل في مبتدأ كل فصل منها مقطوعة غزلية من شعره. وتبدو الروايات والأخبار التي تضمنها الكتاب خليطاً من أخبار عشاق جاهليين وإسلاميين وأمويين وعباسيين.

وقد جاء تأليفُ السّرّاج لِكِتابِه هذا بعد أن سبقه حوالي أربعة عشر كتاباً ورسالةً في نفس المَوضوعِ. وجرَى تأليفُ عددٍ مِن الكُتبِ في المَوضوعِ بَعده، تأثّر أغلبها به تأثّراً كبيراً. لذلك قال عنه الدكتور مُحمّد حسن عبد الله في كتابِه «الحُبّ في التراثِ العربي»: «لا مُبالغة في القَولِ بأنّ كِتابَ «مَصارِع العُشّاق» يُعتبر أكبر وأهم مصدر لأخبارِ وقِصصِ العُشّاق، مهما اختلفت اتّجاهات عِشقِهم، وأثره واضحٌ في كتاباتِ مَن جاءوا بَعده».

أما عن العنوان الذي اختاره جعفر السّرّاج لِكِتابِه. فنجده مُؤَلَّفاً مِن كلمتي «مَصارِع» و«العُشّاق». و«المصارِع» في لِسانِ العربِ مِن صَرَعَ أي طَرَحَ أرضاً. ويُقال صَرَعَته المنيّة أي مات. و«مَصارِع العُشّاق» حيث قُتِلُوا. و«العُشّاق» مِن العِشقِ، وهو فرط المحبّة واللزوم للشيء لا يُفارقه.

وقد توقف الدكتور محمّد حسن عبد الله أمام عنوان الكتاب، وخصوصا أمام الارتباطَ بين كلمتي «مَصارِع العُشّاق» فذكر أنّ «النقطةَ المركزيّة التي حَكَمَت اختيارَ السرّاج هي بلوغُ العاطفةِ مُنتهاها بِالموتِ حُبّاً وما هو في حُكمِ المَوتِ. مِثل الوَجد، والإغماء، والجُنون في حالاتٍ كثيرة».

وبصفة عامة يعد كتاب "مصارع العشاق" مصدراً من مصادر تاريخ العرب الروحي، فإذا كان المؤرخون التقليديون قد كتبوا التاريخ السياسي والاجتماعي فإن السراج (جعفر بن أحمد بن الحسين السراج القاري البغدادي) تصدى لكتابة تاريخ من صنف ثان، وهو تاريخ العرب العاطفي والوجداني. وهذه الكتابة، كانت محفوفة بالمخاطر لأنها تعمدت تجاوز التقاليد القائمة على "ذم الهوى" ومضت تحتفي بهذه العاطفة التي كانت، في نظر السراج، قرينة الحياة وإن حملت في تضاعيفها نقيضها الموت.

ويتعامل عدد كبير من دارسي التراث العربي مع كتاب "مصارع العشاق" على أساس أنه كتاب قصص، فمن يقرأ الكتاب يلحظ أن النصوص التي يضمها لا تستعيد أخباراً بعينها بقدر ما تعيد ابتكارها، وهي لا تكرر أحداثها بقدر ما تصوغها صياغة جديدة.

حتى لكأن القصص تتخذ من الرواة ذرائع لتستمر وتتواصل وتنبعث كل مرة في هيئة جديدة. لذلك قد نجد في نفس الكتاب الخبر الواحد يرد في روايات عدة وصيغ كثيرة. كذلك نجد أن الكثير من الأخبار تحولت من البساطة إلى التركيب والإطناب بل إن بعضها اختلق اختلاقاً وإن أوهمنا الراوي بواقعيته، فالأسانيد، لا تنهض في القصص العربي القديم بوظيفة التحقيق، كما هو الشأن في الأحاديث، وإنما تنهض بوظيفة فنية وهي وظيفة الإيهام، أي الإيهام بأن القصة تربطها بالمرجع صلات قربى.

وقد تنوعت في الكتاب أساليب الموت، فأغلبية من لقوا مصارعهم تشهق شهقة وتفارق الحياة، وبعضهم يسقطون صرعى، وفئة يغمى عليها فلا تفيق وأخرى تخرج روحها للحظتها وما إلى ذلك من تنويعات تطال البشر والغربان والبلابل، فتمييز الحقيقي من المتخيل في هذا الكتاب مهمة صعبة.

ويشهد هذا الكتاب للسراج بقدرته التجميعية واجهاده لنفسه في جمع ما قيل عن الحب، وافراد تلك الاقوال في فصل افتتاحي يرد فيه من جملة ما يرد وصف ابن زهير المديني للحب بأنه «الجنون والذل وهو داء أهل الظرف» ويليه ذلك الرأي الجميل للواعظ الصوفي يحيى بن معاذ «لو كان لي من الأمر شيئا ما عذبت العشاق لأن ذنوبهم ذنوب اضطرار لا ذنوب اختيار».

كذلك يحمد له أنه استطاع أن يستفيد من آراء الشعوب الأخرى فيأخذ عن الاغريق قول سقراط «العشق جنون وهو ألوان كما الجنون ألوان» وعن الصينيين قول أحد حكمائهم «لم أر حقا اشبه بباطل، ولا باطلاً أشبه بحق من العشق هزله جد، وجده هزل، وأوله لعب، وآخره عطب».

وقد كان القرن الهجري الخامس في تاريخنا العربي قرنا حافلا على أصعدة كثيرة، سياسيا، واقتصاديا، وثقافيا. وقد عاش السراج هذا القرن وتفاعل معه بما فيه من تقلبات في أحوال الدولة، وتوسعات في رقعتها، وتغييرات على صعيد أهل الحكم فيها. إضافة إلى أن الحياة الثقافية في عصره كانت نشطة حيوية، ازدهر فيها العلم والأدب والتأليف في ظِل ظروف سياسية متشابكة.

فالعراق كان قد شهد ظهور موجة انحلال خُلقي في فترة نضوج المؤلف، فأخذ علماء الدين بالتصدي لها. ولأن القصص كانت ولا تزال فن التأثير المحبوب لدى العامة، فقد نجح السراج في تقديم حكايات عاطفية هادفة إلى الإصلاح وداعية إلى التطهُّر.

يرى الباحثون إن السراج وضع نصب عينيه حين ألَّف كتابه هدفي إمتاع القارئ وإفادته. مشيرة إلى أنه تحرى بلوغ هذين الهدفين فمصارع العشاقِ يحمل في محصلته رسالة أخلاقية هادفة، وذلك بتوظيفه قصص العشقِ لتكون في خدمة العقيدة.

وقد اعتمد السراج التلقائية في رواية حكاياته مراعيا ما يناسب من

أخذوا عنه في مجلس العلم. كما أنه لم يعمد إلى التحليل والتعليل في تناوله موضوع العشق. تاركا للقارئ أن يقوم هو بذلك من خلال عملية القراءة.

والسراج يجعل من صريع العشق شهيدا، وقد أورد حديثا نبويا يجعل قتيل العشق شهيدا، وتأكيدا لذلك، يروي قصة عن رجل من ولد سعيد بن العاص عشق جارية بالمدينة،فهام بها دهرا وهو لا يعلمها،ثم أخبرها،وفشا خبرهما، فبلغ عمر بن عبد العزيز، وهو أمير المدينة، فأهداها إليه،فمكثت عنده سنة ثم ماتت، ولم يلبث أن مات كمدا عليها، فقال أبو السائب المخزومي:حمزة سيد الشهداء، وهذا سيد العشاق، فامضوا بنا حتى ننحر على قبره سبعين نحرة،كما كبر النبى ﷺ،على قبر حمزة، رضى الله عنه، سبعين تكبيرة.

والعفة من القيم التى يؤكد السراج عليها، فيحشد قصصا متعددة تبين عاقبة الذين يتمسكون بالعفة سلوكا فى الحياة، وقد تدخل هذه القصص فى إطار الأساطير،كما فى قصة الفتى الذى أغرته امرأة فتبعها إلى أن وقف ببابها، فمثلت له الآية:"إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون" فخر مغشيا عليه، فنقلته المرأة التى أغرته إلى باب منزله وعندما أفاق قص ما جرى على أبيه، وشهق شهقة فمات، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب، فذهب حتى وقف على قبره، فنادى: يا فلان، ولمن خاف مقام ربه جنتان،فأجابه الفتى من داخل القبر: قد أعطانيهما ربى يا عمر".

وهذه القصص فى حقيقتها نوع من الوعظ الدينى، يحث المتلقى على التمسك بالفضائل ومقاومة الشهوات، كذلك حوى الكتاب قصصا

طريفة، فمثلا يحكي عن غربان النوى، غربان النوى، فالغربان أيضا لقت مصارعها بزعم أنها تفرق بين العشاق، وقد أفرد السراج لها فصلا في كتابه، ويذكر أشهر من وعذبهم وقتلهم في الصحارى والأسواق، ومن هؤلاء الزبير بن بكا الذي كان يمسك كل يوم أحد الغربان، ويمضي به الى السوق ويضربه أمام الناس متمثلاً بقيس بن ذريح القائل:

ألا يا غراب البين قد طرت بالذي أحاذر من لبـــنى فهل انت واقع

ولا يترك الزبير الغراب إلا حين يميته بعد عذاب طويل.

أحمد رجب

المأمون يسأل ما هو العشق

أخبَرَنا أبو علي مُحَمَّد بن الحسين الحازري بقراءتي عليه، قال: حدَّثنا أبو العالية الشامي، قال: سأل أميرُ المؤمنين المأمونُ يحيى بنَ أكثم عن العشق ما هو؟ فقال: هو سوانحُ تسنح للمرء، فيهتم بها قلبه، وتُؤثِرها نفسُه.

قال: فقال له ثُمامة: اسكُت يا يحيى! إنما عليك أن تُجيب في مسألة طلاق أو في مُحرِمٍ صادَ ظبيًا أو قتَل نملة، فأما هذه فمسائلنا نحن. فقال له المأمون: قل يا ثُمامة، ما العشق؟

فقال ثُمامة: العشق جليسٌ مُمْتِعٌ، وأليفٌ مؤنس، وصاحب مُلكٍ مسالكه لطيفة، ومذاهبه غامضة، وأحكامه جائزة، مَلَكَ الأبدان وأرواحها، والقلوب وخواطرها، والعيون ونواظرها، والعقول وآراءها، وأُعطي عنان طاعتها، وقَوْدَ تصرُّفها، توارَى عن الأبصار مَدخلُه، وعميَ في القلوب مسلكه.

فقال له المأمون: أحسنتَ والله يا ثمامة! وأمر له بألف دينار.

العشق أوله لعبٌ وآخره عطب

أنبأنا أبو بكر أحمد بن علي الحافظ إن لم يكن حدَّثنا قال: أخبرني أبو الحسن علي بن أيوب القُمِّي الكاتب بقراءتي عليه، قال: أخبرنا أبو عُبيد الله مُحَمَّد بن عمران، قال: قال بعض الفلاسفة: لم أرَ حقًّا أشبه بباطلٍ ولا باطلًا أشبه بحقٍّ من العشق؛ هزله جدٌّ وجدُّه هزل، وأوله لعبٌ وآخره عطب.

الجنة لمن عشق وعف

أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي بدمشق قال: حدَّثنا أبو الحسن علي بن أيوب بن الحسين بن أيوب القُمِّي إملاءً، قال: حدَّثنا أبو عبد الله إبراهيم بن مُحَّد بن عرفة النحوي الملقب بنِفْطَوَيْهِ، قال: دخلت على مُحَّد بن داود الأصبهاني في مرضِه الذي مات فيه، فقلت له: كيف تجدك؟ فقال: حُبُّ مَن تَعْلم أورَثني ما ترى.

فقلت: ما منَعك عن الاستمتاع به مع القُدرة عليه؟

فقال: الاستمتاع على وجهَين؛ أحدهما النظر المباح. والثاني اللذَّة المحظورة. فأما النظر المباح فأورَثَني ما ترى، وأمَّا اللذة المحظورة فإنه منَعني منها ما حدَّثني أبي قال: حدَّثنا سُوَيْد بن سعيد قال: حدَّثنا عليُّ بن مُسهِر، عن أبي يحيى القتَّات، عن مُجاهدٍ، عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من عَشِقَ وكتَمَ وعفَّ وصَبَرَ غَفَر الله له وأدخلَه الجنة.» ثمَّ أنشَدنا لنفسه شعرا، فقلت له: نفَيتَ القياس في الفقه، وأثبتَّه في الشعر. فقال: غلبةُ الهوى وملَكة النفوس دعَتا إليه.

قال: ومات في ليلته أو في اليوم الثاني.

العاشق الشهيد

أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي الحافظ، قال: حدَّثنا أبو الحسن علي بن أيوب القُمِّي، قال: حدَّثنا علي بن مُسْهِر، عن أبي يحيى القَتَّات، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن عَشِقَ فظَفِر فعفَّ فمات؛ مات شهيدًا.»

العاشق التقي

أخبرنا الشيخ الصالح أبو طالب مُحَمَّد بن علي بن الفتح العشاري بقراءتي عليه، قال: أخبرنا أبو الحسين مُحَمَّد بن عبد الله القطيعي إجازة، قال: حدَّثنا سُوَيْد بن سعيد أبو مُحَمَّد، قال: سمعتُ عليَّ بن عاصم يقول: قال لي رجلٌ من أهل الكوفة من بعض إخواني: ألا أريك فَتًى عاشِقًا؟ قال: بلى والله؛ فإني أسمع الناس يُنكِرون العشق وذهاب العقل فيه، وإني لأحب رؤيته، فعِدني يومًا أجئ معك فيه.

قال: فوعدته يومًا، فمضينا، فأنشأ صاحبي يحدِّثني عن نُسكِه وعبادته، وما كان فيه من الاجتهاد، قلتُ: وبِمَن هو متعلق؟ قال: بجارية لبعض أهله؛ كان يَختلِف إليهم، فوقعَت في نفسه، فسألَهم أن يبيعوها منه فأبوا، وبذَل لهم جميع ملكه، وهو سبعمائة دينار، فأبوا عليه ضِرارًا وحَسَدًا أن يكون مثلها في مُلكه. فلما أبوا عليه بعثَت إليه الجارية، وكانت تحبه حُبًّا شديدًا: مُرني بأمرك، فوالله لأُطيعنَّك ولأنتهين إلى أمرك في كل ما أمرتني.

فأرسل إليها: عليكِ بطاعة الله عز وجل؛ فإنَّ عليها المُعوَّل والسكون إليها، وبطاعة من يَملك رقَّك؛ فإنها مضمومة إلى طاعة ربك عز وجل، ودَعي الفكر في أمري؛ لعلَّ الله عز وجل أن يجعل لنا فرجًا يومًا من الدهر، فوالله ما كنتُ بالذي تطيبُ نفسي بنَيلِ شيء أحبُّه أبدًا في ملكي، فأمنعه،

أمُد يدي إليه حَرامًا بغير ثمن، ولكن أستعين بالله على أمري، فليكن هذا آخر مُرْسَلَك إليَّ، ولا تعودي فإني أكره والله أن يَراني الله تعالى وأنا في قبضته مُلتمسًا أمرًا يَكرهه مني، فعليكِ بتقوى الله، فإنها عصمة لأهل طاعته، وفيها سُلُوٌّ عن معصيته. قال: ثمَّ لزم الاجتهاد الشديد، ولبس الشَّعر وتوحَّد، فكان لا يدخل منزله إلا من ليلٍ إلى ليلٍ، وهو مع ذلك مشغول القلب بذكرها ما يكاد يُفارقه، فوالله ما زال الأمر به حتى قطعه، فهو الآن ذاهب العقل والِهٌ في منزله. قال: ثمَّ صرنا إلى الباب واستأذنَّا فأذِنَ لنا. قال عليٌّ: فدخلت إلى دارٍ قوراء سِرّية، وإذا أنا بشابٍّ في وسط الدار على حصيرٍ مُتَّزِرٍ بإزارٍ ومُرْتَدٍ بآخر. قال: فسلَّمنا عليه، فلم يردَّ علينا السلام، فجلسنا إلى جنبه، وإذا هو من أجمل من رأيتُ وجهًا، وهو مُطرِقٌ يَنْكُتُ في الأرض، ثمَّ ينظر إلى ساعدِه، ثمَّ يتنفَّس الصُّعَدَاء، حتى أقول قد خرجتْ نفْسه، وهو مع ذلك كالخلال من شدة الضَّرِّ الذي به.

قال: فالتفتُّ فإذا أنا بوَردة حمراء مشدودةٍ في عضُده، فقلتُ لصاحبي: ما هذه؟ فوالله ما رأيتُ العامَ وردًا قبل هذه! فقال: أظن فُلانة، وسمَّاها، بعثَت بها إليه. فلمَّا سماها رفع رأسه فنظر إلينا، ثمَّ قال: ثمَّ أطرق، فقلت: الساعة واللهِ يَموت.

قال علي بن عاصم: وَوَرَدَ عليَّ من أمره ما لم أتمالك، وقمتُ أجرُّ ردائي، فوالله ما بلغتُ الباب حتى سمعت الصراخ، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: مات والله!

قال عليٌّ: فقلت: والله لا أبرح حتى أشهده.

قال: وتسامَع الناس فجاءوا بطبيبٍ فقال: خذوا في أمر صاحبكم، فقد مضى لسبيله، فغسلوه وكفَّنوه ودفنوه، وانصرف الناس.

فقال لي صاحبي: امضِ بنا! فقلتُ: امضِ أنت؛ فإني أريد الجلوس ها هنا ساعة، فمضى، فما زلت أبكي وأعتبر به، وأذكُر أهل محبة الله عز وجل وما هم فيه. قال: فبَينا أنا على ذلك إذا أنا بجارية قد أقبلَت كأنها مَهاة، وهي تُكثِر الالتفات، فقالت لي: يا هذا! أين دُفِن هذا الفتى؟ قال: عليٌّ: فرأيتُ وجهًا ما رأيت قبله مثله، فأومأتُ إلى قبره.

قال: فذهبت إليه، فوالله ما تركت على القبر كثير تُرابٍ إلا ألقتْه على رأسها، وجعلت تتمرغ فيه حتى ظننتُ أنها ستموت، فما كان بأسرع من أن طلع قومٌ يسعَون حتى جاءُوا إليها، فأخذوها وجعلوا يَضربونها، فقُمت إليهم فقلت: رِفقًا بها، يَرحمكم الله! فقالت: دعهم أيها الرجل يبلغوا هِمَّتهم، فوالله لا انتفعوا بي بعدَه أيامَ حياتي، فليصنعوا بي ما شاءوا.

قال عليٌّ: فإذا هي التي كان يحبُّها الفتى، فانصرفتُ وتركتُها.

فراقيَّة ابن زُرَيْق

أخبرنا أبو الحسين مُحَمَّد بن علي بن مُحَمَّد بن الجاز القرشي الأديب بالكوفة، وأنا مُتوجِّه إلى مكة سنة إحدى وأربعين وأربعمائة بقراءتي عليه، قال: حدَّثني بعض أصدقائي أن رجلًا من أهل بغداد قصد أبا عبد الرحمن الأندلسي وتقرَّب إليه بنسبه، فأراد أبو عبد الرحمن أن يَبْلُوَه ويَختبره، فأعطاه شيئًا نزرًا. فقال البغدادي: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون! سلكتُ البراري والبحار والمَهامه والقفار إلى هذا الرجل فأعطاني هذا العطاء النَّزْر؟! فانكسرت إليه نفسه واعتلَّ فمات.

وشُغِل عنه الأندلسي أيَّامًا، ثمَّ سأل عنه فخرجوا يطلبونه، فانتهَوا إلى الخان الذي كان فيه وسألوا الحانيَّة عنه، فقالت: إنه كان في هذا البيت، ومذ أمس لم أره. فصعدوا فدفعوا الباب، فإذا بالرجل ميِّتًا، وعند رأسه رُقعة فيها مكتوب:

لا تَعْذُليه، فإن العذل يُولِعهُ

قد قلتِ حقًّا، ولكن ليس يَسمعُه

جاوَزتِ في نُصحِه حدًّا أَضرَّ به

من حيثُ قَدَّرْتِ أنَّ النُّصحَ يَنفعُهُ

قد كان مضطلِعًا بالخَطب يَحمِلهُ

فضُلِّعَت بخطوبِ البَيْنِ أضلُعه

ما آبَ مِن سفرٍ إلا وأزعَجَهُ

عزمٌ إلى سَفَرٍ بالرُّغمِ يُزْمِعُه

كأنما هو في حلٍّ ومُرْتَحَلٍ

مُوَكَّلٌ بقضاءِ الله يَذرعُهُ

أستودِع الله في بغداد لي قمرًا

بالكَرْخ من فَلَكِ الأزرار مطلعُه

وكم تشفَّعَ بي أن لا أفارقهُ

وللضرورات حالٌ لا تُشَفِّعُه

وكم تشبَّثَ بي يومَ الرحيل ضُحًى

وأدمُعي مُستهِلاتٌ وأدمعهُ

أَعطيتُ مُلكًا فلم أُحسِن سياستَهُ

وكلُّ مَن لا يسُوسُ الملكَ يخلعُهُ

ومَن غدًا لابسًا ثوب النعيم بلا

شكرٍ عليه، فعنْهُ الله يَنزِعهُ

قال لنا أبو الحسين مُحَمَّد بن علي بن الجاز، وزادني أبو علي الحسن بن علي المتصوف:

والحرص في المرء، والأرزاقُ قد قُسِمت

بَغيٌ؛ أَلَا إنَّ بغيَ المرء يَصرَعُهُ

لو أنني لم تقَعْ عَيني على بلدٍ

في سفرتي هذه إلا وأقطَعُهُ

اعتضتُ عن وجه خِلّي، بعد فِرْقَتِهِ

كأسًا تجرَّع منها ما أُجرَّعهُ

فلما وقف أبو عبد الرحمن على هذه الأبيات بكى حتى اخضلَّت لحيتُه، وقال: وددتُ أن هذا الرجل حيٌّ وأُشاطره نصف ملكي. وكان في رُقعة الرجل: منزلي ببغداد في الموضع المعروف بكذا، والقوم يُعرفون بكذا، فَحُمِلَ إليهم خمسة آلاف دينار وَسُفْتَجة، وحَصلت في يد القوم وعرَّفتهم موت الرجل.

عاشق يخاف معصية الله

وأخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن سعيد بمصر أيضًا بإسناده قال: ونظر مُحَمَّد بن عُبيد الله بن الأشعث الدمشقي، وكان من خيار عباد الله، إلى غلامٍ جميل فغشيَ عليه، فحُمِلَ إلى منزله، واعتاده السُّقم حتى أُقعِدَ من رجليه، فكان لا يقوم عليهما زمنًا طويلًا، فكنا نأتيه ونعودُه، ونسأله عن حاله وأمره، وكان لا يُخبرنا بقصته ولا بسبب مرضه، وكان الناس يتحدَّثون بحديث نظره، فبلَغ ذلك الغلام، فأتاه عائدًا، فهشَّ إليه وتحرَّك وضحك في وجهه، واستبشر برؤيته، فما زال يعودُه حتى قام على رجلَيه وعاد إلى حالته.

فسأله الغلام يومًا المصير إليه معه إلى منزله، فأبى أن يفعل، فكلَّمني أن أسأله أن يتحوَّل إليه، فسألته، فأبى، فقلت: وما الذي تكره من ذلك؟ فقال: لستُ بمعصومٍ من البلاء، ولا آمَنُ من الفتنة، وأخاف أن تقع عليَّ من الشيطان محنةٌ أو عند ظَفَر بفرصة، فتجري بيني وبينه معصيةٌ فيَحتجب الله عني يوم تظهرُ فيه الأسرار ويُكشَفُ فيه عن ساقٍ؛ فأكون من الخاسرين.

ليلى العامرية ومجنونها

أخبرنا أبو مُحَمَّد الحسن بن علي الجوهري قراءة عليه، قال: قال الهيثم بن عدي: حدَّثنا عثمان بن عمارة عن أشياخهم من بني مرة، قال: رحَلَ رجلٌ مِنَّا إلى ناحية الشام مما يلي تيماء والشراة في طلب بُغية له، فإذا هو بخيمة قد رُفِعت له، وقد أصابه مطر، فعدَل إليها، فتنحنح، فإذا امرأة قد كلمته، فقالت له: انزل، فنزل، وراحَت إبلهم وغنمهم، فإذا أمرٌ عظيمٌ وإذا رُعاةٌ كثيرٌ.

فقالت لبعض العبيد: سلُوا هذا الرجل من أين أقبل؟ فقلتُ: من ناحية اليمامة ونجد. فقالت: أي بلاد نجد وَطِئتَ؟ قلت: كلها. قالت: بمن نزلتَ هناك؟ قلت: ببني عامر. فتنفَّسَت الصُّعداء وقالت: بأيِّ بني عامر؟ فقلت: بني الحُريش. فاستعبَرَت، ثمَّ قالت: هل سمعتَ بذكر فتًى يُقال له قيس ويُلقَّب بالمجنون؟ فقلتُ: إي والله، ونزلت بأبيه، وأتيتُه حتى نظرت إليه يهيم في تلك الفيافي، ويكون مع الوحش، لا يَعقِل ولا يَفهم، إلا أن تُذكَر له ليلى فيبكي، ويُنشد أشعارًا يقولها فيها.

قال: فرفعَتِ السِّترَ بيني وبينها، فإذا شِقة قمرٍ لم ترَ عيني مثلَها، فبكَت وانتحبَت حتى ظننتُ والله أن قلبها قد انصدع، فقلت لها: أيتها المرأة! اتقي الله، فوالله ما قلتُ بأسًا. فمكثَت طويلًا على تلك الحال من

البُكا والنحيب، ثمَّ قالت:

ألا ليت شعري والخطوب كثيرةٌ

متى رحلُ قيسٍ مُستقِلٌّ فراجعُ

بنفسي مَن لا يستقلُّ برَحلِه

ومَن هو، إن لم يَحفظ اللهُ، ضائع

ثمَّ بكت حتى غُشي عليها. فلما أفاقت قلتُ: مَن أنتِ بالله؟ قالت: أنا ليلى المشئومة عليه، غيرُ المساعِدة له. فما رأيتُ مثل حزنها ووَجدِها، فمضَيتُ وتركتُها.

الرشيد وجارية زلزل

أخبرنا أبو مُحمَّد الحسن بن علي الجوهري قراءةً عليه، قال: حدَّثني إسحاق بن إبراهيم الموصلي عن أبيه، قال: قال لي زلزلٌ، وكان اسمه منصورًا: عندي جاريةٌ مِن حالها ومن صفتها، قد علَّمتُها الغناء. فكنت أشتهي أن أراها فأستحيي أن أسأله، فلما تُوفِيَ زلزلٌ بلغني أن ورثَته يَعرضون الجارية، فصرتُ إليهم فأخرَجوها، فإذا جارية كاد الغَزال أن يكونها لولا ما تمَّ منها ونقص منه.

قال: قلتُ لها: غنِّي صوتًا! فجيء بالعود فَوُضِع في حِجرِها، فاندفعت تُغني وتقول وعيناها تذرفان:

أقفر من أوتاره العودُ

فالعودُ للإقفار معمودُ

وأوحَش المزمار من صوته

فما له بعدَكَ تغريدُ

مَن للمزامير وسُمَّاعِها

وعامِرُ اللذات مفقودُ

والخمرُ تبكي في أباريقها

والقَينةُ الخمصانة الرُّودُ

ثمَّ شهقَت شهقةً ظننتُ أن نفسها قد خرجت، فركبتُ من ساعتي، فدخلت على أمير المؤمنين فأخبرتُه بخبر الجارية وما سمعت منها، فأمر بإحضارها، فلما دخلت عليه قال لها: غنِّي الصوت الذي غنَّيتِ به إبراهيم!

فغنَّت وجعلَت تريد البُكا فيمنعُها إجلال أمير المؤمنين، فرحمها وأُعجِبَ بها، فقال: أتُحبِّين أن أشتريَك؟ فقالت: يا سيِّدي، أما إذا خيَّرتَني فقد وجب نُصحُك عليَّ، والله لا يَشتريني أحدٌ بعد زلزلٍ فيَنتفِع بي. فقال: يا إبراهيم أتعلم بالعراق جارية جمعَت ما جمَعَت هذه؟ إن وُجِدَت فاشتَرِها بشَطرِ مالي! فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين، ولا على وجه الأرض. فأمَر بشرائها وأعتَقَها وأجرى عليها رِزقًا.

صريعا الحب

أخبرني القاضي أبو الحسين أحمد بن علي بن الحسين التَّوَّزِي قراءةً عليه، قال: أخبرنا عبد الرحمن، عن عمه، عن يونس، قال: انصرفتُ من الحج فمررتُ بماوية، وكان لي فيها صديقٌ من بني عامر بن صعصعة، فصرت إليه مُسلِّمًا، فأنزلني، فبينا أنا عنده، ونحن قاعدان بفنائه، إذا نِساءٌ مُستبشرات، وهن يَقُلن: تكلَّم تكلَّم!

فقلتُ: ما هذا؟ فقالوا: فتىً مِنَّا كان يعشق ابنة عمٍّ له، فزُوِّجت، وحُمِلت إلى ناحية الحجاز، فإنه لعلى فراشه منذ حَوْلٍ ما تكلَّم، ولا أكل، إلا أن يؤتى بما يأكله ويشربه. فقلت: أُحبُّ أن أراه. فقام، وقمتُ معه فمشَينا غير بعيد، وإذا بفتىً مُضطجع بفناء بيت من تلك البيوت، لم يبقَ منه إلا خيالٌ، فأكبَّ الشيخ عليه يسأله، وأمه واقفةٌ، فقالت: يا مالك! هذا عمُّك أبو فلان يَعُودُك. ففتح عينيه، وأنشأ يقول:

لِيَبكني اليوم أهل الوُدِّ والشفقِ

لم يبقَ من مهجتي إلا شفا رَمَقِ

اليومَ آخِرُ عهدي بالحياة، فقد

أُطلِقتُ من رَبقَةِ الأحزان والقلقِ

ثمَّ تنفَّس الصُّعَدَاء فإذا هو ميت، فقام الشيخ، وقمتُ فانصرفت إلى

خبائه، فإذا بجارية بضة تبكي وتتفجَّع، فقال الشيخ: ما يبكيك؟ فأنشأت تقول:

ألا أبكي لصبٍّ شفَّ مُهجتَه

طولُ السقام وأضنى جسمَه الكمدُ

يا ليتَ من خلَّف القلبَ الهَيوم به

عندي، فأشكو إليه بعض ما أجِدُ

أَنَشْرُ تُربِك أسرى لي النسيم به

أم أنت حيث يُناطُ السَّحْر والكَبِدُ؟

ثمَّ انثنت على كبدها، وشهقت، فإذا هي ميتة.

قال يونس: فقمتُ من عند الشيخ وأنا وقيذ.

أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن مُحَّد بن طاهر الدقَّاق، قال: حدَّثنا الأمير أبو الحسن أحمد بن مُحَّد بن المكتفي بالله، قال: حدَّثنا ابن دُرَيْد، فذكر القصة.

من الحب اليائس إلى التعبد

حدَّثنا أبو الحسن علي بن عبد الله الهمذاني بمكة، قال: حدَّثنا إبراهيم بن علي، قال: أخبرني أحمد بن سعيد العابد، عن أبيه، قال: كان عندنا بالكوفة شابٌّ يتعبَّد مُلازِمًا للمسجد الجامع، لا يكاد يخلو منه، وكان حسَن الوجه، حسَن القامة، حسَن السمت. فنظرَت إليه امرأة ذات جمال وعقل، فشُغِفَت به، وطال ذلك عليها، فلما كان ذات يوم وقفَت له على طريقه وهو يريد المسجد، فقالت له: يا فتى، اسمع مني كلمات أُكلِّمك بها، ثمَّ اعمل ما شئت.

فمضى ولم يكلمها، ثمَّ وقفت له بعد ذلك على طريقه، وهو يريد منزله، فقالت له: يا فتى، اسمع كلمات أكلمك بها. فأطرق، فقال لها: هذا موقف تُهمة، وأنا أكره أن أكون للتُّهمة موضِعًا. فقالت له: والله ما وقفتُ موقفي هذا جهالةً مني بأمرك، ولكن معاذ الله أن يتشوَّف العباد إلى مثل هذا مني، والذي حمَلني على أن لقيتك في هذا الأمر بنفسي معرفتي أن القليل من هذا عند الناس كثيرٌ، وأنتم معاشر العُبَّاد في مثال القوارير؛ أدنى شيء يَعيبه، وجُملةُ ما أكلمك به أن جوارحي كلها مشغولةٌ بك، فاللهَ اللهَ في أمري وأمرك.

قال: فمضى الشاب إلى منزله، وأراد أن يُصلي فلم يَعقِل كيف يصلي، فأخذ قِرطاسًا وكتب كتابًا، ثمَّ خرج من منزله، فإذا بالمرأة واقفةٌ في

موضعها، فألقى إليها الكتاب، ورجع إلى منزله.

وكان في الكتاب: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، اعلمي أيتها المرأة أن الله تبارك وتعالى إذا عُصي حَلِمَ، فإذا عاوَد العبد المعصية سَتَرَ، فإذا لبس لها ملابسَها غضب الله عز وجل لنفسه غضبةً تضيق منها السموات والأرضون والجبال والشجر والدواب، فمَن الذي يطيق غضبه؟

فإن كان ما ذكرتِ باطِلًا، فإني أُذكِّرك يوم تكون السماء كالمُهل، وتصيرُ الجبال كالعِهن، وتجثو الأمم لصَولة الجبار العظيم، وإني والله قد ضَعُفتُ عن إصلاح نفسي، فكيف بصلاح غيري. وإن كان ما ذكرتِ حقًّا فإني أدلُّك على طبيبٍ هو وليُّ الكلوم الممرضة، والأوجاع المُمْرضة؛ ذلك الله رب العالمين، فاقصديه على صدق المسألة، فإني متشاغل عنك بقوله عز وجل: وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ * يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ * وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ فأين المهرب من هذه الآية؟!

ثمَّ جاءت بعد ذلك بأيام فوقفت على طريقه، فلما رآها من بعيد أراد الرجوع إلى منزله لئلا يراها، فقالت: يا فتى لا ترجع، فلا كان المُلتقى بعد هذا أبدًا إلا بين يدَي الله عز وجل. وبكَت بُكاءً كثيرًا، ثمَّ قالت: أسأل الله عز وجل الذي بيده مفاتيح قلبك أن يُسهِّل ما قد عسِر من أمرك. ثمَّ تبعته فقالت: امنُن عليَّ بموعظة أحملها عنك، وأوصني بوصية أعمل عليها!

فقال لها الفتى: أوصيك بحفظ نفسك من نفسك، وأُذكِّرك قوله عز

وجل: وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ. قال: فأطرقت، وبكت بُكاءً أشدَّ من بُكائها الأول، ثمَّ أفاقت، فقالت:

والله ما حملتْ أنثى ولا وضعتْ

إنسًا كمثلك في مِصري وأحيائي

وذكرت أبياتًا آخرها:

لألبسنَّ لهذا الأمر مِدرَعةً

ولا ركنتُ إلى لذَّات دُنيايا

ثمَّ لزمت بيتها، فأخذت بالعبادة. قال: فكانت إذا أجهدها الأمر تدعو بكتابه فتضعه على عينَيها، فيُقال لها: وهل يُغني هذا شيئًا؟ فتقول: وهل لي دواءٌ غيره؟! وكان إذا جَنَّ عليها الليل قامت إلى مِحارِبها، فإذا صلَّت قالت:

يا وارث الأرض هَبْ لي منك مغفِرةً

وحلَّ عني هوى ذا الهاجر الداني

وانظر إلى خلَّتي، يا مُشتكى حَزَني

بنظرةٍ منك تجلو كلَّ أحزاني

فلم تزل على ذلك حتى ماتت كَمَدًا، وكان الفتى يَذكرُها بعد موتها، ثم يبكي عليها، فيُقال له: مِمَّ بكاؤك وأنت قد أيَّستها؟ فيقول: إنِّي ذقت طعمها مني في أول أمرها، وجعلتُ قَطعها ذخيرة لي عند الله عز وجل، وإني لأستحيي من الله عز وجل أن أستردَّ ذخيرة ذخرتُها عنده.

وفاء زوجة

أخبرنا أبو مُحَمَّد الحسن بن علي الجوهري قراءةً عليه، قال: أخبرنا أبو عمر مُحَمَّد بن العباس بن حَيُّوَيْهِ عن مصعب بن عبد الله الزبيري، قال: تزوَّج مالك بن عمرو الغساني بابنة عم النُّعمان بن بشير، فشُغف كل واحد منهما بصاحبه، وكان مالك شُجاعًا، فاشترطت عليه أن لا يُقاتِلَ إذا لُقيَ شفقةً عليه وضنًّا به، وإنه غزا حيًّا من لخم، فباشر القتال، فأصابته جراحٌ، فقال وهو مثقلٌ منها:

ألا ليتَ شِعري عن غزالٍ تركته

إذا ما أتاه مصرعي كيف يَصنعُ؟

فلو أنني كنتُ المؤخَّر بعدَه

لما بَرِحَت نفسي عليه تَطلَّعُ

وإنه مكث يومًا وليلةً ثمَّ مات من جراحه، فلما وصَل خبرُه إلى زوجته بكته سنةً، ثمَّ اعتُقِل لسانُها فامتنعت من الكلام، وكثُر خُطَّابها، فقال عمومتها وولاة أمرها: نُزوِّجها لعل لسانها يَنطلِق ويذهب حزنها، فإنما هي من النساء. فزوَّجوها بعض أبناء الملوك، فساق إليها ألف بعير، فلما كان في الليلة التي أُهديت إليه فيها قامت على باب القبة ثمَّ قالت:

يقولُ رِجالٌ: زوِّجوها لعلها

تَقَرُّ وترضى بعده بخليل

فأخفيتُ في النفس التي ليس بعدها

رجاءٌ لهم، والصدقُ أفضل قيلِ

وحدَّثني أصحابه أن مالِكًا

أقام، ونادى صحْبه برحيلِ

وحدَّثني أصحابه أن مالِكًا

ضَروبٌ بنصلِ السيف غير نَكولِ

وحدَّثني أصحابه أن مالِكًا

خفيفٌ على الأحداثِ غيرُ ثقيلِ

وحدَّثني أصحابه أن مالِكًا

صرومٌ كماضي الشفرتَين صَقيلِ

وأخبرنا أبو مُحَمَّد الجوهري، قال: أخبرنا أبو عمر مُحَمَّد بن العباس بن حَيُّوَيْهِ، قال: حدَّثنا مُحَمَّد بن خلف، قال: أخبرنا أبو بكر العامري، قال: حدَّثني عمرو بن مُحَمَّد العبقري، قال: أخبرني شيخٌ أثق به، وذكر الحديث، وزاد فيه: فلما فرغَت من الشعر شهقتْ شهقةً فماتت.

الظريفة العاشقة

أخبرنا أبو مُحَمَّد الحسن بن علي في ما أذن لنا أن نرويه عنه، قال: حدَّثني عباس بن عبيد، قال: كان بالمدينة جاريةٌ ظريفةٌ حاذِقةٌ بالغناء، فهويَتْ فتىً من قُرَيش، فكانت لا تُفارقه ولا يفارقها، فملَّها الفتى وتزايَدت هي في محبته، وأَسِفت، فغارت، فولهت وجعَل مولاها لا يعبأ بذلك، ولا يرقُّ لشكواها، وتفاقم الأمر بها حتى هامت على وجهها، ومزقَّت ثيابها، وضربَت مَن لقيَها، فلما رأى مولاها ذلك عالجها، فلم ينجع فيها العلاج، وكانت تدور بالليل في السكك مع الأدب والظَّرف.

قال: فلقيها مولاها ذات يوم في الطريق، ومعه أصحابٌ له، فجعلت تبكي وتقول:

الحــبُّ أول مـــا يكـــون لجاجـــةً   يأتي بــــه وتســـــوقه الأقــــدار

حـتى إذا اقـتحم الفـتى لُجـج الهـوى   جـــاءت أمـــورٌ لا تُطـــاقُ كبـــارُ

قال: فما بقي أحدٌ إلا رحمها، فقال لها مولاها: يا فُلانة، امضي معنا إلى البيت. فأبت وقالت:

شغل الحليُ أهله أن يُعارا

قال: وذكر بعض من رآها ليلةً، وقد لقيَتْها مجنونةٌ أخرى، فقالت لها: فلانةُ! كيف أنتِ! فقالت: كم لا أحب، فكيف أنت من ولهك وحُبك؟

قالت: على ما لم يزل يتزايَد بي على مرِّ الأيام. قالت لها: تَغني بصوتٍ من أصواتك، فإني قريبة الشبه بك. فأخذَت قصبةً توقِّعُ بها وغنَّت:

يا مَــن شــكا ألمًــا للحُــبِّ شــبَّهه	بالنـار في القلـبِ مـن حُـزنٍ وتـذكارِ
إنِّي لأُعظِـــمُ مــــا بي أن أشــــبِّهه	شــيئًا يُقــاسُ إلى مِثـــلٍ ومِقـــدارِ
لــــو أن قلــــبيَ في نارٍ لأحرَقهــــا	لأنَّ أحزانـــه أذكـــى مــــن النــــارِ

عاشق يموت كتماناً

أخبرنا أبو طاهر مُحَمَّد بن علي بن مُحَمَّد بن العلاف الواعظ، رحمه الله، بقراءتي عليه، قال: حدَّثنا أبو حفص عمر بن أحمد بن عثمان بن شاهين، قال: سمعتُ مالك بن سعيد يقول: حدَّثني مشيخةٌ من خزاعة أنه كان عندهم بالطائف جاريةٌ مُتعبّدة ذات يسارٍ وورعٍ، وكانت لها أمٌّ أشد عبادةً منها، وكانت مشهورةً بالعبادة، وكانتا قليلتي المخالطة للناس، وكانت لهما بضاعةٌ مع رجلٍ من أهل الطائف، فكان يُبْضِعُها لهُما، فما رزقهنَّ الله من شيء أتاهن به. قال: وبعث يومًا ابنه إليهنَّ ببعض حوائجهن، فقرع الباب، فقالت أمها: من هذا؟ قال: أنا ابن فلان. قالت: ادخل! فدخل وابنتها في بيت، ولم تعلم بدخول الفتى، فلما قعد معها خرجَت ابنتها وهي تظن أنها بعض نسائهنَّ حتى جلست بين يديه، فلما نظرت إليه قامت مبادرةً فخرجت، ونظر إليها فإذا هي من أجمل العرب.

قال: ووقع حُبُّها في قلبه، فخرَج من عندها، وما يدري أين يسلُكُ، فأتى أباه، فأخبره برسالتهنَّ، وجعل الفتى ينحل ويذوب جسمه وتغيَّر عما كان عليه، ولزم الوحدة والفكر، وجعل الناس يظنُّون أن الذي به من عبادة قد لزِمها حتى سقط على فراشه.

فلما رآه أبوه على تلك الحال دعا له الأطباء والمعالجين، فجعلوا

ينظرون إليه، فكُلٌّ يصف له دواءً ويقول: به داءٌ لا يقوله صاحبه، والفتى مع ذلك ساكت لا يتكلم، حتى إذا طالت علَّته واشتدَّ عليه الأمر دعا أبوه فتيانًا من الحي، وإخوانه الذين كانوا له أُنسًا، فقال لهم: اخلوا به وسلوه عن علَّته لعله يخبركم ببعض ما يجده. فأتوا فكلموه وسألوه، فقال: والله ما بي عِلَّةٌ أعرفها فأُبينها لكم، وأخبركم بما أجد منها، فأقِلُّوا الكلام.

وكان الفتى فطِنًا ذا عقل، فلما طال به الوجد دعا امرأة من بعضِ أهله، فخلا بها، وقال: إنِّي مُلقٍ إليك حديثًا ما ألقيتُه إليك إلا عند الإياس من نفسي، فإن ضمنتِ لي كتمانه أخبرتك، وإلا صبرتُ حتى يحكم الله في أمري ما يُحِب، وبعد؛ فوالله ما أخبرتُ به أحدًا قبلك، ولئن كتمت عليَّ لا أُخبر به أحدًا بعدك، وإن هذا البلاء الذي أرى بي لا شك قاتلي، وإنه يجب عليَّ في محبتي له أن أكون لمن أُحب صائنًا، وعليه مُشفِقًا من تزيُّد الناس وإكثارهم حتى يَصير الصغير كبيرًا، والكبير عندهم الباقي ذكره أبدًا، الله الله في أمري، واجعليه مُحرَزًا في صدرك، فإن فعلتِ فلك حسنُ المكافأة، وإن أبيت فالله يحسن لك الشكر.

فقالت له المرأة: قل يا بني ما بدا لك، فوالله ما أجد في الدنيا أحدًا أحبُّ بقاءه غيرك، وكيف لي أن يكون عندي بعض دوائك، فوالله لأكتمنَّ أمرك ما بقيت أيام الدنيا. فقال لها: إن من قصتي كذا وكذا! فقالت له: يا بني، أفلا أخبرتنا، فوالله ما رأيتُ كلمة أسكن بمجامع القلب فلا تُفارقه أبدًا من كلمة مُحِبٍّ عاشقٍ أخبر مَن يُحبه أنه له وامقٌ، فتلك الكلمة تزرع في قلوب ذوي الألباب شجرًا لا تُدرَك أصوله. فقال لها: ومَن لي بها؟ وكيف السبيل إليها؟ وقد بلغَكِ حالُها وقصتها وشدة اجتهادها وعبادتها؟

قالت له: يا بني، عليَّ أن آتيك بما تُسَرُّ به.

قال: فلبسَت ثوبها وأتت منزل الجارية، فدخلت فسلَّمت على أمها وحادثتها ساعة، فسألتها أمها عن حاله وعن وجعِه، فقالت: والله لقد رأيت الأوجاع والآلام فما رأيت وجعًا قط كوجعه، وإن وجعه يزيد في كل يوم، وألمه يترقَّى، وهو في ذلك صابرٌ غيرُ شاكٍ، لا يَفقِد من جوارحه شيئًا، ولا من عقله. فقالت أمها: أفلا تدعون له الأطباء؟ قالت: بلى، والله فما وقع أحدٌ منهم على دائه ولا يفقه دواءه.

ثمَّ قامت فدخلت على الجارية في بيتها الذي كانت تتعبَّد فيه، فسلَّمت عليها وحادثتها ساعة، وقد كان وقع إلى الجارية خبره، فعلمت أن ذلك من أجلها، فقالت لها المرأة: يا بُنية، أبليتِ شبابك وأفنيت أيامك على هذه الحال التي أنتِ عليها.

قالت: يا عمتاه، أيَّةُ حال سوء تريني عليها؟ قالت: لا يا بنية، ولكن مثلك يفرح في الدنيا ويلذُّ فيها ببعض ما أحل الله عز وجل لكِ، غير تاركة لطاعة ربك ولا مفارقة لخدمته، فيجمع الله لك بذلك الدارَين جميعًا، فوالله ما حرَّم الله عز وجل على عباده ما أحل له.

فقالت: يا عمتاه، أو هذه الدار دارُ بقاء لا انقطاع لها ولا فناء فتكون الجوارح قد وثقت بذلك، فتجعل لله تعالى منظر هِمَمِها، وللدنيا شطرها، فتعدَّ الجوارِح إذن التعب راحة والكدَّ سلامةً، أم هذه الدار دارُ فناءٍ وتلك دار بقاء ومكافأة، والعمل على حسب ذلك؟ قالت: يا بنية لا! ولكن الدنيا دار فناء وانقطاع، وليست بباقية على أحد ولا دائمة له،

ولكن قد جعل الله تعالى لعباده فيها ساعاتٍ صدقة منه على النفوس، تنال فيها ما أحل لها من مخافة الشدة عليها.

فقالت الجارية: صدقت يا عمتاه، ولكن لله عبادٌ قد علموا وصح في هِمَمهم شيءٌ من ذُخر ذخروه عنده، فجعلوا هذا الشكر الذي جعله ذخيرة عنده إذ لم تكن الدنيا كاملةً لهم، ولا هم مُتنقِّصون شيئًا قدَّموه لأنفسهم وسكنت نفوسهم ورضيت منهم بالصبر على الطاعة لتنال جُملة الكرامة.

وإن كلامك ليَدلُّني على أن تحته عِلَّة، وهو الذي حملك على مناظرتك لي على مثل هذا، وقد كنتُ أظنُّ قبل اليوم فيك أنك تأمرين بالحرص على طاعة الله عز وجل والخدمة له، والتقرُّب إليه بالأعمال الزكية التي تبلغ رضاه وترفع عنده، فقد أصبحت مُتغيِّرة على ذلك العهد الذي كنتُ أعهدكِ عليه، فأخبريني بما عندك وأوضحي لي ما في نفسِك، فإن يكن لك جوابٌ أعتبتك، وإن يكن فيه حظٌّ تابعتك، وإن يكن أمرًا بعيدًا من الله تعالى وعظتُك.

قالت: يا بنية، فأنا مخبرتك به، والذي منعني من إلقائه إليك هيبتُك، فأمَّا إذا بسطتني وعلمت أن عندي خيرًا وأمرتني بإلقائه، فإن من قصة فلان كذا وكذا. قالت: قد ظننت ذلك، فأبلغيه مني السلام، وقولي: أي أخاه! إنِّي والله قد وهبت نفسي لمليكٍ يُكافئ من أقرضه بالعطايا الجزيلة، ويُعينُ من انقطع إليه وخدمه بالهمم الرفيعة، وليس إلى الرجوع بعد الهبة سبيلٌ، فتوسَّل إلى مولاك ومولاي بمحابِّه، واضرع إليه في غفران ما قدَّمَت يداك من عمل لم يَهبه فيه ولم يَرضه، فهو أول ما يجبُ عليك أن تسأله.

وأول ما يجب عليَّ أن أعظك به، فإذا خدمتَه بقدرِ ما عصيته طاب لك الفراغ من سؤال شهوات القلوب وخطرات الصدور، فإنه لا يَحسُن بعبد كان لمولاه عاصيًا وعن أمره موليًا ناسيًا أن ينسى ذنوبه والاعتذار منها، ويُلزم نفسه مسألة الحوائج لعلها داعيةٌ له إلى الفتنة إن لم يتداركه الله تعالى بكرمه، فاستنقذ نفسك يا أخي من مهلكات الذنوب، فإن له فضلًا وَسِعَ كل شيء.

ولستُ مؤيستَكَ من فضله إن رآك مُتبَتِّلًا إليه، ومما قدمت يداك مُعتذِرًا أن يمنَّ بي عليك، فإن الملك الذي يجود على من ولَّى عنه بكرمه، فكيف من أقبل إليه، فلا يشك أنه إذا جاد على من تولى عنه يكون لمن أطاعه مُكرِمًا، وإليه وقت الندامة مُسرِعًا، وما أبقيتُ لك حُجة تحتجُّ بها، فليكن ما أخبرتك به نصب عينك ولا تُرادِّني في المسألة، فلا أجيبك والسلام.

قال: فقامت المرأة من عندها، فأتته، فأخبرته بمقالتها. قال: فبكى بُكاءً شديدًا، فقالت له العجوز: والله يا بني ما رأيت امرأةً خوفُ الله عز وجل في صدرها مثل هذه المرأة، فاعمل بما أمرَتْك به، فقد والله بالغَت في النصيحة وأحسنت الموعظة، فلا تُلقِ نفسك في مهلكات الأمور فتندم حيث لا تُغني الندامة.

ولو علمتَ يا بني أن حيلة تنفُذُ غير الذي دعتك إليها لاحتلتُها، ولكان عندي من ذلك ما أرجو أن أكون محتالةً، ولكني رأيت الله عز وجل قد جعلَتْه نُصب عينَيها، فهي بقلبها إليه ناظرة، ومن جعل الله عز وجل نصب عينيه لها عن زينة الحياة الدنيا ورِفعتها واشتغل بما قد جعله نصب عينيه.

وجعل يبكي ويقول: كيف لي بالبلوغ إلى ما دعت إليه، ومتى يكون

آخر المدة التي نلتقي فيها؟ قال: فاشتد وجعُه ذلك، وحال عن ذوي العقول، فلما نظر القوم إليه في تلك الحال، وجعل لا يُقرُّه قرار، حبسوه في بيت وأوثقوه، وتوهم القوم أن الذي به من عشق، فكان ربما أفلَتَ، فيخرُج من منزله فيجتمع عليه الصبيان فيقولون له: مُت عشقًا، مُت عشقًا! فكان يقول:

أأُفشي إليكم بعض ما قد يَهيجُني
أم الصبر أولى بالفتى عند ما يَلقى؟
أأُوعَد وعدًا ما له الدهر آخرٌ
وأومرُ بالتقوى، ومَن لي بالتقوى؟
سلامٌ على من لا أُسميه باسمه
ولو صرتُ مثل الطير في قفصٍ يُلقى
ألا أيها الصبيان لو ذُقتمُ الهوى
لأيقنتم أني مُحدِّثكم حقًّا
أُحبُّكمُ من حُبها، وأراكمُ
تقولون لي: مُت يا شجاع بها عِشقًا
فلَم تنصفوني، لا، ولا هي أنصفت
فرِفقًا رويدًا، وَيحَكم بالفتى رِفقًا

فلما صح ذلك عند أهله، وعلموا أنه عاشق، جعلوا يسألونه عن أمره، فكان لا يُجيبهم، وكتمت العجوز قصته، فأخذوه فحبسوه في بيت، فلم يزل فيه حتى مات رحمه الله.

يقتلها ويبكي عليها

أخبرنا أبو مُحَمَّد الحسن بن علي بن مُحَمَّد الجوهري، قال: حدَّثني أبو عبد الله اليمامي عن العتبي عن أبيه، قال: كان رجلٌ من العرب تحته ابنة عم له، وكان لها عاشقًا، وكانت امرأة جميلة، وكان من عشقه لها أنه كان يَقعد في دهليزه مع ندمائه، ثمَّ يدخل ساعةً بعد ساعةٍ ينظر إليها، ثمَّ يرجع إلى أصحابه عشقًا لها، فطبن لها ابنُ عمٍّ لها، فاكترى دارًا إلى جنبه، ثمَّ لم يزل يُراسلها حتى أجابته إلى ما أراد، فاحتالت، فنزلت إليه، ودخل الزوج كعادته ينظر إليها فلم يرها، فقال لامرأة: أين فلانة؟ قالت: تقضي حاجة، فطلبها في الموضع فلم يجدها، فإذا هي قد نزلت وهو ينظر إليها، فقال لها: ما وراءك؟ فوالله لتصدقني. قالت: والله لأصدقنَّك، من الأمر كيت وكيت، فأقرَّت له، فسلَّ السيف فضرب عنقها وقتَل أمها وهرب، وأنشأ يقول:

يا طلعةً طلعَ الحِمامُ عليها
فجنى لها ثمر الرَّدى بيدَيها
رويتُ من دمها الثَّرى ولطالَما
روى الهوى شفتيَّ من شفتَيها
حكَّمتُ سيفي في مجال خناقها

ومدامعي تجري على خدَّيها

ما كان قتليها لأني لم أكن

أخشى إذا سقَط الغبار عليها

لكن بخلتُ على العيون بحُسنِها

وأنِفتُ من نظر العيون إليها

قال: وزادني غير أبي عبد الله، وكان لها أختٌ شاعرة، فقالت تجيبه:

لو كنتَ تُشفق أو ترقُّ عليها

لرفعت حدَّ السيف عن ودجيها

ورحمتَ عبرتها وطول حنينها

وجزعتَ من سوءٍ يصيرُ إليها

مَن كان يفعل ما فعلتَ بمثلها

إذ طاوعَتْك وخالفَتْ أبويها

فتركتَها في خدرها مقتولةً

ظُلمًا، وتبكي يا شقيُّ عليها

عمر وابنة الشيخ الأنصاري

أخبرنا أبو طاهر بن السواق، قال: حدَّثنا مُحَمَّد بن فارس، قال: حدَّثني الليث، قال: قال عمرُ بن الخطاب: لا أهدر دمَ أحدٍ من المسلمين. وإنه أُتي يومًا بفتىً أمرد قد وُجِد قتيلًا مُلقًى على وجه الطريق، فسأل عُمر عن أمره واجتهد فلم يقف له على خبر ولم يُعرف له قاتل، فشقَّ ذلك عليه، وقال: اللهم أظفرني بقاتله، حتى إذا كان رأس الحول أو قريبًا من ذلك وُجد صبيٌّ مولودٌ ملقًى بموضع القتيل، فأُتي به عمر رحمة الله عليه، فقال: ظفرت بدم المقتول إن شاء الله، فدفَع الصبيَّ إلى امرأة وقال لها: قومي بشأنه وخذي مِنَّا نفقتَه، وانظري من يأخذه منك، فإذا وجدت امرأة تُقبِّله وتضمُّه إلى صدرها فأعلميني بمكانها.

فلما شب الصبي وطاب جاءت جاريةٌ فقالت للمرأة: إن سيِّدتي بعثتني إليك لتبعثي بالصبي لتراه وتردَّه إليك. قالت: نعم، اذهبي به إليها وأنا معك. فذهبت بالصبي والمرأة معها حتى دخلت على سيدتها، فلما رأتْه أخذته فقبَّلته وضمَّته إليها، وإذا هي بنت شيخٍ من الأنصار من أصحاب النبي ﷺ فأخبرت عمر خبر المرأة، فاشتمل عمر على سيفه، ثمَّ أقبل إلى منزلها، فوجد أباها مُتَّكِئًا على باب داره، فقال: يا أبا فلان! ما فعلَتِ ابنتُك فلانة؟ قال: يا أمير المؤمنين، جزاها الله خيرًا، هي مِن أعرف الناس بحق الله تعالى وحقِّ أبيها مع حسن صلاتها وصيامها والقيام بدينها.

فقال عمر: قد أحببت أن أدخل عليها فأزيدها رغبةً في الخير وأحثَّها على ذلك. فقال الشيخ: جزاك الله خيرًا يا أمير المؤمنين! فقال له: امكث مكانك حتى أرجع إليك.

فاستأذن عمر عليها، فلما دخل أمر عمرُ كل من كان عنده بالخروج فخرجوا عنها، وبقيت هي وعمر في البيت ليس معهما أحدٌ، فكشَف عمر عن السيف فقال: لتصدقني. وكان عمر لا يكذب.

فقالت: على رسلك يا أمير المؤمنين، على الخبير وقعت، فوالله لأصدقنَّ. إن عجوزًا كانت تدخل عليَّ، فاتَّخذتُها أمًّا، وكانت تقوم من أمري بما تقوم به الوالدة، وكنت لها بمنزلة البنت، فأمضَت بذلك حينًا، ثمَّ إنها قالت: يا بُنية، إنه قد عرض لي سفرٌ، ولي بنتٌ في موضعٍ أتخوَّف عليها فيه أن تضيع، وقد أحببت أن أضمَّها إليك حتى أرجع من سفري، فعمدَت إلى ابنٍ، كان لها، شاب أمرد فهيَّأته كهيأة الجارية وأتتني به، وأنا لا أشك أنه جاريةٌ، فكان يرى مني ما ترى الجارية من الجارية، حتى اغتفَلَني يومًا وأنا نائمة، فما شعرت حتى علاني وخالطني، فمددتُ يدي إلى شفرةٍ كانت إلى جنبي فقتلته، ثمَّ أمرت به فأُلقي حيث رأيت، فاشتملت منه على هذا الصبي، فلما وضعته ألقيتُه في موضع أبيه، فهذا والله خبرهما على ما أعلمتك.

فقال لها عمر رحمة الله عليه: صدقتِ بارك الله فيك! ثمَّ أوصاها ووعظها ودعا لها، وخرج من عندها، وقال لأبيها: بارك الله في ابنتك؛ فنعم الابنة ابنتك، وقد وعظتُها وأمرتها. فقال له الشيخ: وصلَكَ الله يا أمير المؤمنين، وجزاك خيرًا عن رعيتك!

سوسن العابدة ومُراوداها

أخبرنا أبو طاهر أحمد بن علي السواق، قال: حدَّثنا أبو عوافة إسماعيل بن سالم عن أبي إدريس الأودي، قال: كان رجلان في بني إسرائيل عابدان، وكانت جاريةٌ يُقال لها سوسن، عابدةٌ، وكانوا يأتون بُستانًا فيتقرَّبون فيه بقربان لهم، فهَوِيَ العابدان سوسن، فكتم كلُّ واحدٍ منهما عن صاحبه، واختبأ كل واحد منهما خلف شجرة ينظران إليها، فبصر كل واحدٍ منهما بصاحبه، فقال كل واحد منهما لصاحبه: ما يُقيمك هنا؟ فأفشى كل واحدٍ منهما إلى صاحبه حبَّ سوسن، فاتفقا على أن يُراوداها عن نفسها.

فلما جاءت لتُقرِّب قالا لها: قد عرفتِ طَواعية بني إسرائيل لنا، فإن لم تؤاتينا قلنا إذا أصبحنا إنَّا أصبنا معك رجلًا، وأن الرجل فاتَنا، وإنَّا أخذناك. فقالت لهما: ما كنتُ لأُطيعكما. فأخذاها وأخرَجاها، وقالا: أخذنا سوسن مع رجل، وإن الرجل سبَقَنا وذهب. فأقاموا سوسن على المصطبة، فكانوا يُقيمون المذنب ثلاثة أيام، فتنزل نارٌ من السماء فتأخذه، فأقاموا سوسن.

فلما كان اليوم الثالث جاء دانيال وهو ابنُ ثلاث عشرة سنة، فوضعوا له كُرسيًّا فجلس عليه، وقال: قدِّموها إليَّ! فجاءا كالمستهزئَين،

فقال: فرِّقوا بين الشاهدَين! فقال لأحدهما: خلف أي شجرة رأيتها؟ فقال: وراء تفاحة. وقال للآخر: خلف أي شجرة رأيتَها؟ فاختلفا، فنزلت نار من السماء فأحرقتهما، وأُفلِتَت سوسن.

يخصي المغنِّي

أخبرنا أبو بكر أحمد بن علي ثابت الحافظ، قال: حدَّثنا علي بن حرب المؤمَّلي عن عامر بن الكلبي عن حماد الراوية، قال: حدَّثني بعض خدم سليمان بن عبد الرحمن، قال: خرَج سليمان بن عبد الملك يريد بيت المقدس، وكان أغيَرَ قُريش وأسرع طيرةً، فنزل منزلًا من غور البلقاء بديرٍ لبعض الرهبان، فحفَّ بالدير أهل العسكر، وكان في من خرج معه رجلٌ من كلب يُقال له سِنانٌ، وكان فارسًا ومُغنِّيًا مُحسِنًا، وشُجاعًا، وبغيرة سليمان بن عبد الملك عارِفًا، ولم يكُ يُسمع له صوتٌ في عسكره، فزاره في تلك الليلة فتيةٌ من أهله، فعشَّاهم وسقاهم، فأخذ فيهم الشراب، فقالوا: يا سنان! ما أكرمتنا بشيء إن لم تُسمعنا صوتك.

فترنَّم فغنَّاهم، فقال:

محجوبةٌ سمعت صوتي فأرَّقها

من آخِرِ الليل لما بلَّها السحر

تُثني على فخذها مُثنى مُعصفرة

والحليُ منها على لباتِها حَصِرُ

لم يَحجب الصوت أحراسٌ ولا غَلَقٌ

فدمعها لطُرُوق الصوت منحدرٌ

في ليلة النِّصف ما يَدري مُضاجِعها

أوجهها عنده أبهى أم القمر

لو خُلِّيت لمشت نحوي على قدمٍ

تكاد من رقةٍ للمَشي تنفطِر

فلما سمع سليمان الصوت قام مفزعًا يتفهَّم ما سمع، وكان معه جاريته عوان، ولم يكن لها نظيرٌ في زمانها في الجمال والتمام والحذق بالغناء، وكان يُحبها، فلما فهم الصوت ارتعدت فرائصه غيرةً، ثمَّ أقبل نحو عوان وهي خلف سِتر، فكشَف الستر رويدًا لينظر أنائمة هي أم مُستيقظة، فوجدها مستيقظة، فلما أحسَّت به وعلمت بأنه قد علم بأنها مستيقظة قالت: يا أمير المؤمنين! قاتل الله الشاعر حيث يقول:

ألا رُب صوتٍ جاءني من مُشوَّهٍ

قبيحِ المحيا واضع الأبِ والجدِّ

قصير نجاد السيف جَعْدٍ بنانُهُ

إلى أَمةٍ يُعزَى معًا وإلى عبدِ

فسكَن مِن غضبه قليلًا، ثمَّ قال لها: فقد راعك صوته على ذلك؟ فقالت: يا أمير المؤمنين، صادف مني استيقاظًا. فقال: ويحك يا عوان! كأنه والله يراكِ ويَنعتُك في غنائه في هذه الليلة، والله لأقطعنه أطباقًا كائنًا ما كان.

ثمَّ بعث في طلبه، فبعثت عوانُ خادِمًا إليه سِرًّا، وقالت له: إن أدركته فحذَّرته، فأنت حرٌّ ولك ديته. فخرج سليمان حتى وقف على باب الدير،

فسبقت رُسلُ سليمان، فأتوا به إلى سليمان مربوطًا حتى وقفوا بين يديه، فقال له: من أنت؟ قال: أنا سنان الكلبي فارسُك يا أمير المؤمنين.

فأنشأ سليمان يقول:

تُثكلُ في الثكلى سنانًا أمُّه

كان لها ريحانةً تشُمه

وخاله يثكلُهُ وعمُّه

ذو سفهٍ هناته تَعُمه

فقال سنان: يا أمير المؤمنين:

استبقني إلى الصَّباح أعتذر

إن لساني بالشراب مُنكسِر

فارسُكَ الكلبي في يومٍ نَكر

فإن يكن أذنبَ ذنبًا أو عثر

فالسيد العافي أحق من غفر

فقال سليمان: أعليَّ تجترئ يا سِنان! أما إِنِّي لا أقتلك، ولكني سأنكِّل بك نكالًا يؤنِّبك من تفحُّلك. فأمر به فخُصي، فسُمِّيَ ذلك الدير دير الخصيان.

تقتل حفاظًا على عرضها

أخبرنا أبو طاهر أحمد بن علي السواق، قال: حدَّثنا مُحَمَّد بن زياد الأعرابي، قال: نزل رجلٌ من العرب بامرأة من باهلة، وليس عندها زوجُها، فأكرمته وفرشته، فلما لم يرَ عندها أحدًا سامَها نفسها، فلما خشيَتْه قالت له: امكث أستَصلِح لك، ثمَّ راحت فأخذَت مُديَة فأخفَتْها ثمَّ أقبلت إليه، فلما رآها ثار إليها فضربت بها في نحره، فلمَّا رأت الدم سقطَت مغشيًّا عليها وسقط هو ميِّتًا، فأتاها آتٍ من أهلها، فوجَدها على تلك الحال، فأجلسها حتى أفاقت، فقال: أعشى باهلة في ذلك:

لعَمري لقد حفَّت مُعاذةُ ضيفها ... وسوَّت عليه مهده ثمَّ برَّتِ

فلمَّا بغاها نفسها غضبَتْ لها ... عروقٌ نمَت وسطَ الثَّرى فاستقرَّتِ

وشدَّت على ذي مُدية الكفِّ مِعصمًا ... وضيئًا وعرَّت نفسها فاستمرَّتِ

فأمَّت بها في نحره وهو يبتغي الـ ... ـنكاح فمرَّت في حشاه وجرَّتِ

فثجَّ كأن النيل في جوفِ صدره ... وأدركَها ضعفُ النساء فخرَّت

المرأة الفاجرة والحية

أخبرنا أبو غالب مُحَمَّد بن أحمد بن سهل بن بشران في كتابه إلينا من واسط العراق، قال: أخبرنا الحسين بن أحمد عن حماد عن أبيه عن المدايني عن جويرية بن أسماء عن عمه، قال: حجَجتُ فإني لفي رفقة مع قوم إذ نزلتُ منزلًا ومعنا امرأة، فنامت وانتبهَت وحية منطويةٌ عليها قد جمعها رأسها وذنبها بين ثدييها، فهالَنا ذلك وارتحَلنا، فلم تزل مُنطوية عليها لا تضرُّها حتى دخلنا أنصاب الحرم فانسابَت، فدخلنا مكة فقضَينا نُسكنا.

فرآها الغريض فقال: أي شقية، ما فعلت حيَّتُك؟ قالت: في النار! فقالت: ستعلمين مَن في النار. ولم أفهم ما أراد، فظننتُ أنه مازحها، واشتقتُ إلى غنائه، ولم يكن بيني وبينه ما يوجب ذلك عليه، فأتيتُ بعض أهله فسألته ذلك، فقال: نعم، فوجَّه إليه أن اخرُج بنا إلى موضع كذا وكذا، ثمَّ قال لي: اركَب بنا، فركبنا حتى سِرنا قدر ميل، فإذا الغريض هناك، فنزلنا فإذا طعامٌ مُعدٌّ وموضع حسن، فأكلنا وشربنا، ثمَّ قال: يا أبا يزيد، هاتِ بعض طرائفك! فاندفع يُغني، ويوقع بقضيب:

مرضتُ فلم تَحفلْ عليَّ جُنوبُ
وأدنفتُ والممشى إليَّ قريبُ
فلا يُبعد الله الشبابَ وقولنا
إذا ما صبونا صبوةً: سنتوبُ

فلقد سمعتُ شيئًا ظننتُ أن الجبال التي حولنا تَنطِق معه شجا صوتٍ وطيب غناءٍ. وقال لي: أتحبُّ أن نزيدك؟ فقلت: إي والله. فقال له: هذا ضيفُك وضيفنا، وقد رغب إليك وإلينا، فأَسعِفه بما يريد. فاندفع يُغني بشعر مجنون بني عامر:

عفا الله عن ليلى الغداة، فإنها
إذا وَلِيَت حُكمًا عليَّ تجورُ
أأتركُ ليلى ليس بيني وبينها
سوى ليلةٍ؟ إنِّي إذن لصبور

فما عقلتُ بما غنى من حسنه، إلا بقول صاحبي: نجورُ عليك يا أبا يزيد، عرَّض بأني لما وليتُ الحكم عليه جُرتُ في سؤالي إياه أكثر من صوت. فقلت له بعد ساعة سِرًّا: جُعلتُ فداءك، إنِّي أريد المضيَّ في أصحابي نُريد الرحلة، وقد أبطأتُ عليهم، فإن رأيت أن تسأله حاطَه الله من السوء والمكروه أن يَزيدني لحنًا واحدًا، فقال: يا أبا يزيد! أتعلم ما هو أشهى إلى ضيفنا؟ قال: نعم، أرادك على أن تُكلمني في أن أُغنيه. قلت: فهو والله ذاك. فاندفع يغني:

خذي العفو مني تَستديمي مودتي
ولا تنطقي في سَورتي حين أغضبُ
فإني رأيتُ الحُبَّ في الصدرِ والأذى
إذا اجتمَعا لم يلبث الحبُّ يذهبُ

فقال له: قد أخذنا العفو منك، واستدَمنا مودَّتك. ثمَّ أقبل علينا، فقال: ألا أحدثكم بحديثٍ حسنٍ؟ قلنا: بلى! فقال: قال شيخٌ من أهل

العلم وبقُبة الناس وصاحب علي بن أبي طالب، وخليفة عبد الله بن عباس على البصرة، أبو الأسود الدؤلي لابنته ليلة البناء: أي بنية النساء كنَّ بوصيتك وتأديبك أحقَّ مني، ولكن لا بدَّ مما لا بدَّ منه. يا بنية، إن أطيب الطيب الماء، وأحسنَ الحسنِ الدهن، وأحلى الحلاوة الكحل.

يا بنية، لا تُكثري مباشرة زوجك فيَملَّك، ولا تَتباعَدي عنه فيجفوَكِ ويعتلَّ عليك، وكوني كما قلتُ لأمك:

خذي العفو مني تستديمي مودَّتي
ولا تنطقي في سَورتي حين أغضبُ
فإني رأيتُ الحبَّ في الصدر والأذى
إذا اجتمعا لم يَلبَثِ الحبُّ يذهبُ

فقلت له: فديتك، ما أدري غناؤك أحسن أم حديثك، والسلام عليك، ونهضتُ وركبت. وتخلف الغريض وصاحبه في موضعهما، وأتيتُ أصحابي وقد أبطأت، فرحلنا منصرفين، حتى إذا كُنَّا في المكان الذي رأيتُ فيه الحية منطوية على صدر المرأة ونحن ذاهبون رأيت الحية والمرأة وهي منطويةٌ عليها، فلم ألبث أن صفَّرت الحية فإذا الوادي يسيل علينا حيَّات، فنَهشْنَها حتى بقيَتْ عظامًا، فطال تعجُّبنا من ذلك، ورأينا ما لم نرَ مثله قط، فقلتُ لجارية كانت معنا: ويحَكِ، أخبرينا عن هذه المرأة! قالت: عَلِقَت ثلاث مرات، وكل مرة تلد ولدًا، فإذا وضَعتْه سجَّرت التنور، ثمَّ ألقته فيه. فذكرتُ قول الغريض حين سألها عن الحياة فقالت في النار: ستَعلمين من في النار.

البلبل الناطق

أخبرنا القاضي أبو علي زيد بن أبي حَيُّوَيْهِ بِتِنِّيس سنة خمس وخمسين وأربعمائة بقراءتي عليه، قال: حدَّثنا الحارث بن عطية عن موسى بن عبيدة عن عطاء في قوله: وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا. قال: كان لها بلبلٌ في قفصٍ، إذا نظر إليها صفَّر لها، فلما رآها قد دعَت يوسف عليه السلام إلى نفسها، ناداه بالعبرانية: يا يوسف لا تزنِ، فإنَّ الطير فينا إذا زنى تناثَر ريشه.

عزة وكُثير

أنبأنا أبو مُحَّد الحسن بن علي بن مُحَّد، قال: حدَّثنا مُحَّد بن العباس بن حَيُّوَيْهِ، قال: أخبرني مُحَّد بن سلام الجمحي، قال: أرادت عزة أن تعرف ما لها عند كُثير فتنكَّرت له، وقامت به متعرِّضة، فقام فاتَّبعها، فكلَّمها، فقالت له: فأين حُبُّكَ عزة؟ فقال: أنا الفداء لك، لو أن عزة أَمةٌ لي لوهبتها لك.

قالت: ويحك! لا تفعل، فقد بلَغني أنها لك في صدق المودة، ومحض المحبة والهوى على حسب الذي كنتَ تُبدي لها من ذلك وأكثر، وبعد، فأين قولك: إذا وصلَتْنا خِلَّةٌ كي نُزيلها أبينا، وقلنا: الحاجبية أولُ، فقال كُثير: بأبي أنتِ وأمي! أَقصري عن ذكرها، واسمعي ما أقول.

ثمَّ قال: ما وصلُ عزة إلا وصلُ غانية في وصلِ غانيةٍ من وصلها خَلَفُ، ثمَّ قال: هل لك في المُخالَّة؟فقالت له: كيف بما قلتَ في عزة وسيَّرته لها؟ فقال: أَقلبه فيتحوَّل إليكِ ويصير لك. قال: فسفرت عن وجهها عند ذلك، وقالت: أغدرًا وانتكاثًا يا فاسق؟ وإنك لها هنا، يا عدوَّ الله! فبُهت وأبلس ولم ينطق، وتحيَّر وخجل، ثمَّ إنها عرَّفته أمرها ونُكثه وغدره بها، وأعلمته سوء فعاله، وقلة حفاظه، ونقضه للعهد والميثاق.

ثمَّ قالت: قاتل الله جميلًا حيث يقول: لحى الله مَن لا ينفع الوِدُّ عنده

ومن حبله إن مُد غيرُ متينِ، ومَن هو ذو وجهَينِ ليس بدائمٍ على العهد حلَّافٌ بكلِّ يمينِ.

قال: فأنشأ كثير يقول بانخزال وحصر وانكسار يَعتذر إليها ويتنصَّل مما كان منه، ويحتال في دفع زلته، مُتمثِّلًا قول جميل، ويُقال: بل سرقه من جميل وانتحله لنفسه، فقال:

ألا ليتَني قبل الذي قلتُ شيبَ لي ... من المذعف القاضي سِمام الذرارح
فمُت ولم تعلم عليَّ خيانة ... ألا رُبَّ باغي الرِّبح ليس برابح
فلا تحمليها واجعَليها خيانةً ... تروَّحتُ منها في مياحة مائح
أبوء بذنبي أنني قد ظلمتها ... وإني بباقي سرِّها غيرُ بائحِ

ابنة أبي ربيعة وأبو مُسْهِر

أخبرنا أبو طاهر بن السواق أحمد بن علي، قال: حدَّثنا مُحَمَّد بن خلف، قال: قال حمَّاد الراوية: أتيت مكة، فجلست في حلقة فيها عُمَرُ بن أبي ربيعة، فتذاكروا العُذريّين وعشقهم وصبابتهم. فقال عمر: أحدِّثكم عن بعض ذلك: إنه كان لي خليلٌ من عُذرَة، وكان مستهترًا بحديث النساء، يُشبِّب بهن، ويُنشد فيهن على أنه لا عاهر الخلوة ولا سريع السلوة، وكان يُوافي الموسم كل سنة، فإذا أبطأ تُرجِمت له الأخبار، وتوكَّفَت له السُّفَّار حتى يقدم، وإنه راثَ عني ذاتَ سنة خبرُه، وقدم وفد عُذرة، فأتيت القوم أنشد عن صاحبي، فإذا غلامٌ قد تنفَّس الصُّعداء، ثمَّ قال: عن أبي المُسهِر تسأل؟ قلت: عنه نشدت وإياه أردت. قال: هيهات أصبح والله أبو مُسْهِر لا مؤيَسًا منه فيُهْمَل، ولا مرجوًّا فيُعلَّل، أصبح والله كما قال:

لعمرك ما حبي لأسماء تاركي
صحيحًا، ولا أَقضي به فأموت

قال: قلت: وما الذي به؟ قال: به مثل الذي بك من تطوُّل تهكُّمِكُما في الضلال، وجرِّكُما أذيال الخسار، كأن لم تَسمعا بجنة ولا نار. قال: قلت: مَن أنت منه يا ابن أخي؟ قال: أنا أخوه. قال: قلت: والله ما يَمنعك من أن تركب طريق أخيك التي ركبها، وتسلك مسلكه الذي سلك، إلا أنك

وأخاك كالوشي والبِجَادِ لا يَرقعك ولا ترقعه. ثمَّ انطلقت وأنا أقول:

أرائحةٌ حُجاج عُذرَة روحةً
ولما يَرُح في القوم جَعدُ بن مَهجَعِ
خليلَين نشكو ما نُلاقي من الهوى
فتًى ما أقُل يسمَع وإن قال أسمَعِ
فلا يُبعِدنك الله خِلًّا، فإنن
سألقى كما لاقيتَ في الحُبِّ مصرعي

فلما حججتُ وقفتُ في الموضع الذي كنت أنا وهو نقف فيه بعرفات، وإذا أنا براكب قد أقبل حتى وقف، وقد تغيَّر لونه وساءت هيئته، فما عرفته إلا بناقته، فأقبل حتى خالف بين عُنُق ناقتي وناقته، ثمَّ اعتنقني وجعل يبكي. فقلت: ما الذي دهاك وما غالك؟ فقال: برح العذل وطولُ المطْل. ثمَّ أنشأ يقول:

لئن كانت عديلةُ ذات بثٍّ
لقد علمَتْ بأن الحب داءُ
ألم تنظر إلى تغيير جسمي
وأني لا يزايلني البكاء
وأني لو تكلَّفتُ الذي بي
لعفَّى الكلم وانكشف الغِطاء
وإن معاشري ورجالَ قومي
حتوفُهم الصبابةُ واللقاء
إذا العُذريُّ مات بحتفِ أنفٍ
فذاك العبد يَبكيه الرِّشاءُ

فقلت: يا أبا مُسْهِر! إنها ساعةٌ عظيمةٌ، وإنك في جمع من أقطار الأرض، ولو دعوتَ كنتَ قمينًا أن تظفر بحاجتك، وأن تُنصَر على عدوِّك. قال: فجعل يدعو حتى إذا تدلَّت الشمس للغروب وهمَّ الناس بأن يُفيضوا سمعته يُهمهم، فأصختُ له مستمعًا، فإذا هو يقول:

يا ربَّ كلِّ غدوةٍ وروحة
من مُحرِمٍ يُشكو الضحى ولوحه
أنت حسيب الخطب يوم الدَّوحة

فقلت له: وما يوم الدوحة؟ قال: إنِّي امرؤ ذو مالٍ كثير من نعم وشاء، وإني خشيتُ على مالي التلف، فأتيتُ أخوالي من كلب فأوسعوا لي عن صدر المجلس وسقوني بجمَّة البئر، فكانوا خيرَ أخوالٍ حتى هممتُ بمواقعة إبل لي بماءٍ يُقال له الخَرَزَاتُ، فركبتُ وتعلَّقتُ معي شرابًا كان أهداه إليَّ بعض الكلبيين، وانطلقت حتى إذا كنت بين الحي ومرعى النعم رُفِعت لي دوحةٌ عظيمةٌ.

فقلت: لو نزلتُ تحت هذه الشجرة، وتروَّحت مُبردًا؟ فنزلتُ فشددتُ فرسي بغصنٍ من أغصانها، ثمَّ جلست تحتها، فإذا بغبارٍ قد سطع، فتبيَّنتُ فبدت لي شخوصٌ ثلاثةٌ، فإذا رجل يَطرُدُ مِسحَلًا وأتانًا، فلما قرُب مني إذا عليه درعٌ أصفر وعمامةُ خز سوداء، وإذا هو تنالُ فروع شعره كتفيه، فقلت في نفسي: غُلامٌ حديث عهدٍ بعرسٍ، فأعجلَتْه لذة الصيد فنسي ثوبه وأخذ ثوب امرأته. فما لبث أن لحق بالمسحل فصرعه ثمَّ ثنى طعنة الأتان فصرعها، ثمَّ أقبل وهو يقول:

نطعنُهم سلكى ومخلوجة

كرَّكَ لأْمَينِ على نابِلِ

قال: فقلت: إنك قد تعبت وأتعبت، فلو نزلت. فثنى رجله فنزل، فشدَّ فرسه بغصنٍ من أغصان الشجرة، ثمَّ أقبل حتى جلس قريبًا مني، فجعل يحدِّثني حديثًا ذكرت به قول الشاعر:

وإن حديثًا منكِ لو تبذلينه

جنى النحلِ في ألبانِ عوذٍ مطافِلِ

قال: فبينا هو كذلك إذا حكَّ بالسوط على ثنيتَيه، فرأيت والله يا ابن أبي ربيعة ظل السوط بينهما، فما ملكت نفسي أن قبضت على السوط فقلت: مه! فقال: ولِمَ؟ قلت: إنِّي أخاف أن تكسرهما، فإنهما رقيقتان. قال: هما عذبتان.

ثمَّ رفع عقيرته فجعل يغني:

إذا قبَّلَ الإنسانُ آخر يشتهي

ثناياه لم يأثم وكان له أجرًا

فإن زاد زادَ الله في حسناته

مثاقيل يَمحو الله عنه بها الوزرا

ثمَّ قال لي: ما هذا الذي تعلقتَ في سرجك؟ قلت: شرابٌ أهداه إليَّ بعض أهلك، فهل لك فيه؟ قال: وما أكرهه. فأتيتُه به فوضَعه بيني وبينه، فلما شرب منه شيئًا نظرت إلى عينيه كأنهما عينا مَهاة، قد أضلَّت وَلدًا، أو ذعَرها قانِصٌ، فعلم أين نظري، فرفع عقيرته يغني:

إن العيونَ التي في طرفِها حَوَرٌ

قتَلْنَنا ثمَّ لم يُحيينَ قتلانا

يَصرعن ذا اللُّبِ حتى لا حراك به

وهُنَّ أضعفُ خلق الله أركانا

فقلت له: من أين لك هذا الشعر؟ قال: وقَع رَجُلٌ مِنَّا باليمامة وأنشَدنيه. ثمَّ قمت لأُصلح شيئًا من أمر فرسي، فرجعت وقد جرَّ العمامة عن رأسه، وإذا غلامٌ كأنه الدينار المنقوش. فقلت: سبحانك اللهمَّ ما أعظم قدرتك وأحسن صنعتك! قال: كيف قلت ذلك؟ قلت: مما راعني من نورك وبَهَرني من جمالك. قال: وما الذي يروعُك من زَرَق الدواب وحبيس التراب، ثمَّ لا تدري أيَنعَم بعد ذلك أم ييأس.

ثمَّ قام إلى فرسه، فلمَّا أقبل برَقت لي بارقة الدرع، فإذا ثديٌ كأنه حُقٌّ. قلت: نشدتُكَ الله، أامرأة؟ قالت: إي والله، امرأة تكره العَهَرَ وتحبُّ الغزل. قلت: والله وإنَّا كذلك.

قال: فجلسَتْ تُحدِّثني، فما أفقِدُ من أنسها حتى مالت على الدوحة سكرًا، واستحسَنتُ والله يا ابن أبي ربيعة الغدر، وزُيِّن في عيني، ثمَّ إن الله عز وجل عصَمني بمنِّه، فجلست منها حَجَرة، فما لبثت أن انتبهت مذعورة، فلاثت عمامتها برأسها، وأخذت الرمح، وجالت في متن فرسها، فقلت: أما تُزوِّديني منك زادًا؟ فأعطتني ثيابها، فشممت منها كالنبات الممطور، ثمَّ قلت: أين الموعد؟ فقالت: إن لي أخوةً شرِسِين وأبًا غيورًا، ووالله لأن أسُرَّك أحب إليَّ من أن أضُرَّك. قال: ثمَّ مضت، فكان آخر العهد بها إلى يومي هذا، فهي والله التي بلغَت بي ما تراه من هذا المبلغ وأحلَّتني هذا المحل.

قال: قلت: وأنت والله يا أبا مُسهرٍ ما استُحسِن الغدرُ إلا بك، فإذا قد اخضلَّت لحيته بدموعه. قال: قلت: والله ما قلتُ لكَ ذلك إلا مازِحًا. وداخلَتْني له رِقة، فلما انقضى الموسم شددتُ على ناقتي، وشدَّ على ناقته، وحملتُ غُلامًا لي على بعير، وحمَّلت عليه قُبة أدمٍ خضراء كانت لأبي ربيعة، وأخذتُ معي ألف دينار ومُطرَف خز، ثمَّ خرجت حتى أتينا كلبًا، فإذا الشيخ في نادي قومه، فأتيتُه، فسلَّمتُ عليه، فقال: وعليك السلام، من أنت؟ قلت: عُمر بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي. قال: المعروف غير المجهول، فما الذي جاء بك؟ فقلت: جئتُ خاطِبًا. قال: أنت الكفؤ لا يُرغَبُ عن حَسَبِه، والرجُلُ لا يُردُّ عن حاجته.

قال: قلت: إنِّي لم آتِكَ في نفسي، وإن كنتُ موضع الرغبة، ولكن أتيتكم لابن أختكم العُذري. قال: والله إنه لكفيء الحسب كريم المنصب، غير أن بناتي لم يقَعْن إلا في هذا الحي من قريش.

قال: فعرَف الجزع من ذلك في وجهي، فقال: أما إنِّي لم أصنع بك شيئًا لم أصنعه بغيرك، أُخيِّرُها ما اختارت. قال: قلت له: والله ما أنصفْتَني. قال: وكيف ذاك؟ قال: كنتَ تختار لغيري، ووليّت الخيارَ لي غيرَك. فأومأ إليَّ صاحبي أن دعه يُخيّرها. قلت: خيّرها. فأرسل إليها أن من الأمر كذا وكذا، فارتئي رأيك. قال: فأرسلت إليه، ما كنتُ لأستبدَّ برأيٍ دون القرشي، أما الخيار فخياري ما اختار.

قال: قد صيَّرَتِ الأمر إليك. فحمدت الله تعالى وصلَّيتُ على نبيه، وقلت: قد زوجتها الجعد بن مَهجَع، وأصدقتُها هذه الألف دينار، وجعلت تكرِمَتَها العبد والقُبَّة، وكسوتُ الشيخَ المُطرفَ، فقَبِلَه وسُرَّ به، وسألته أن

يبني بها من ليلته، فأجابني إلى ذلك، وضُربت القبة وسط الحي، وأُهديت إليه ليلًا، وبِتُّ عند الشيخ خير مبيت. فلما أصبحت غدوت، فقمت بباب القبة، فخرج إليَّ وقد تبيَّن الجذل في وجهه. قال: فقلت له: كيف كنتَ بعدي، وكيف هي بعدك؟ قال: أبدت لي كثيرًا مما أخفَت يوم رأيتها. فقلت: ما حملك على ذلك؟ فأنشأ يقول:

كتمتُ الهوى أنِّي رأيتك جازِعًا
فقلتُ فتًى بعض الصَّديق يُريدُ
وإن تطرحنِّي أو تقول فَتِيَّةٌ
يُضِرُّ بها بَرْحُ الهوى فتعودُ
فوَرَّيتُ عما بي وفي الكبد الحشا
من الوجد بَرْحٌ، فاعلَمَنَّ، شديدُ

قال: فقلت: أقِم على أهلك، بارك الله لك! وانطلقتُ إلى أهلي، وأنا أقول:

كَفَيتُ أخي العُذريَّ ما كان نابه
ومثلي لأثقال النوائب أحملُ
أما استحسَنت مني المكارم والعُلى
إذا اطُّرِحَت أني أقولُ وأفعلُ

سيد العشاق

حدث أبو عمر بن حَيُّوَيْهِ، ونقلته من خطه، قال: قال: حدَّثني مصعب بن عبد الله الزبيري، قال: عَشِقَ رجلٌ من ولد سعيد بن العاص جاريةً مُغنّية بالمدينة، فهام بها دهرًا، وهو لا يُعلمها بذلك، ثمَّ إنه ضجرَ فقال: والله لأبوحنَّ لها. فأتاها عشية، فلما خرجَت إليه، قال لها: بأبي أنتِ، أتُغنّين:

أتجزُونَ بالودِّ المضاعَف مثله

فإن الكريم مَن جزى الودَّ بالودِّ

قالت: نعم، وأغنّي أحسن منه. ثمَّ غنَّت:

للذي وَدَّنا المودَّة بالضِّعْفِ،

وفَضْلُ البادي بِهِ لا يُجازَى

لو بدا ما بنا لكُم ملأ الأرضَ

وأقطار شامِهَا والحِجَازَا

فاتَّصلَ ما بينهُما، فبلغ الخبرُ عمر بن عبد العزيز، وهو أمير المدينة، فابتاعها له وأهداها إليه، فمكثت عنده سنة، ثمَّ ماتت، فبقي مولاها شهرًا أو أقل، ثمَّ مات كَمدًا عليها، فقال أبو السائب المخزومي: حمزةُ سيدُ

الشهداء، وهذا سيد العشاق، فامضوا بنا حتى ننحر على قبره سبعين نحرة، كما كبَّر النبي ﷺ على قبر حمزة ﵁ سبعين تكبيرة. قال: وبلغ أبا حازم الخبر، فقال: ما من مُحِبٍّ في الله يبلُغُ هذا إلا وليٌّ.

قتيل الهجران

أخبرنا أبو الحسن علي بن عبد الله بن الحسن بمكة، قال: سمعتُ أبا بكر الرازي، قال: سمعتُ عبد الرحمن الصوفي، يقول: كنتُ ببغداد في سوق النخَّاسين، فرأيتُ قومًا مجتمعين، فدنوت منهم، فرأيت شابًّا مصروعًا مغشيًّا عليه، فقلتُ لواحد منهم: ما الذي أصابه؟ فقال: سمع آيةً من كتاب الله عز وجل. فقلت: أيَّة آية كانت؟ فقال: قوله عز وجل: أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ؟ قال: فلما سمع أفاق، وأنشأ يقول:

ألم يأنِ للهجرانِ أن يتَصَرَّما

وللغُصْنِ، غُصنِ البَانِ، أن يتبسَّما

وللعاشقِ الصَّبِّ الذي ذاب وانحنى

أما آن أن يُبكى عليه ويُرحَما

كتبتُ بماء الشَّوقِ بين جوانحي

كِتابًا حكى نقش الوُشاةِ مُنمنَمًا

ثمَّ صاح صيحةً خرَّ مغشيًّا عليه، فحرَّكناه فإذا هو ميت.

لم يَفُتْها جواره ميِّتًا

أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن مُحَمَّد بن طاهر الدقاق بقراءتي عليه، قال: أخبرنا الأمير أبو الحسن أحمد بن مُحَمَّد المكتفي بالله، قال: حدَّثني مصدع بن غلاب الحميري، وكان مُخضرَمًا، وأدركته، وهو ابن ثماني عشر ومائة سنة، وما في وفرته ولحيته بيضاء، قال: كان بِذَمار فتًى من حِميَر، من أهل بيت شرف يُقال له: زَرعةُ ابنُ رقيم، وكان جميلًا شاعرًا لا تراه امرأة إلا صبَتْ إليه، وكان في ظهر ذَمار رجلٌ شيخٌ كثيرُ المال، وكانت له بنتٌ تُسمَّى مُفداة، بارعة الجمال، حصيفة اللب، ذات لسان مِصلق، تُفحِمُ البليغَ، وتُخرسُ المنطيق، وكان زرعة يتحدَّثُ إليها في فتيةٍ من الحي، وكان ممن يتحدَّث إليها فتًى من قومها يُقال له حيي، ذو جمالٍ وعفاف وحياء، فكانت تركن إلى حديثه، وتشمئزُّ من زرعة لرَهقه، فساء ذلك زُرعة وأحزنه، فاجتمَعا ذات يومٍ عندها فرأى إعراضها عنه وإقبالها على حيي، فقال:

صدودٌ وإعراضٌ وإظهارُ بَغضَةٍ

علامَ وَلِمِ يا بنت آل العُذافِرِ؟

فقالت:

على غير ما شرٍّ، ولكنك امرؤٌ

عُرِفتِ بغل المومِساتِ العواهِرِ

فقال حيي:

جمالُك يا زرَعَ بن أرقَمَ إنما تُناجي

القلوب بالعيون النواظِرِ

فقال زرعة:

فإن يَكُ مما خسَّ حظي لأنني

أُصابي فتصببني عيون القصائِرِ

وإني كريمٌ لا أُزنُّ بريبةٍ

ولا يعتري ثوبيَّ رينُ المعايرِ

فقالت المفداة:

كذاك فكُن، يَسلم لك العِرضُ، إنه

جمالُ امرئ أن يَرتدي عِرضَ طاهر

فقال حيي:

حياءكُما لا تَعصياه، فإنما

يكون الحياءُ من توقِّي المعايرِ

فانصرف زرعةُ وقد خامَره من حبِّها ما غَلَبَ على عقله، فغبر أيَّامًا عنها، وامتنع من الطعام والشراب والقرار، وأنشأ يقول:

يا بُغيةً أهدت إلى القلب لوعةً

لقد خُبِّئَت لي منك إحدى الدهارس

وما كنتُ أدري والبلايا مُظِلَّةٌ

بأن حِمامي تحت لحظِ مُخالِسِ

جلستُ على مكتوبةِ القلب طائعًا

فيا طوع محبوسٍ لأعنفِ حابِسِ

فشاع هذا الشعر في الحي وبلغ المُفداة، فاحتجَبَت عنه، وامتنعت من محادثة الرجال، فامتنع من الحركة والطعام، فغبَرَ على ذلك حولٌ، ومات عظيمٌ من عظماء القبائل، فبرَز مأتم النساء، فبلَغ زرعة أن المفداة في المأتم، فاحتمل حتى تناءى نشزًا، واجتمع إليه لِداتُه، يُفنِّدون رأيه ويَعذُلونه، فأنشأ يقول:

لم يُلَم في الوفاءِ مَن كتم الـحُب

وأغضى على فؤادٍ لهيد

صابنا ذاك لاسم مَن جلَب السقمَ

عليه ونفسه في الوريد

ثمَّ شهق فمات، وتصايَحَ أصحابه ونساؤه، وبلَغ المفداة خبره، فقامت نحوه حتى وقفت عليه، وقد تعفَّر وجهه، وأهله يَنضحونه بالماء، فهمَّت أن تُلقي نفسها عليه، ثمَّ تماسكت، وبادرَت خباءها، فسقطَت تائهة العقل، تُكلَّم فلا تُجيب، سحابة يومها، فلما جنَّ عليها الليل رفعت

عقيرتها فقالت:

بنفسي يا زرعَ بن أرقم لوعةٌ

طويتُ عليها القلب والسرُّ كاتِمٌ

لئن لم أمت حُزنًا عليه فإنني

لألأم مِن نِيطَت عليه التمائم

لئن فُتَّني حيًّا فليس بفائتي

جوارُك مَيتًا حيث تَبلى الرمائم

ثمَّ تنفَّست نفسًا نبَّه من حولها فإذا هي ميتةٌ، فدُفنت إلى جنبه.

يزيد يموت حزناً على حبابة

حدَّث أبو علي بن شاذان قال: حدَّثني موسى بن جعفر بن أبي كثير وعبد الملك بن الماجشون، قال: لما ماتَ عمر بن عبد العزيز قال يزيد: والله ما عمر بأحوج إلى الله مني. قال: فأقام أربعين ليلةً يسيرُ بسيرةِ عُمَر، فقالت حبابةُ لخصِيٍّ له كان صاحب أمره: ويحك قُمْ بي حيثُ يسمع كلامي ولكَ عليَّ عشرةُ آلاف درهم، فلما مرَّ يزيدُ بها قالت:

بكيتُ الصِّبى جهلًا فمَن شاء لامني

ومن شاء آسى في البكاء وأسعَدا

ألا لا تلُمه اليوم أن يَتبلَّدا

فقد مُنع المحزونُ أن يَتجلَّدا

وما العيشُ إلا ما تلذُّ وتشتهي

وإن لام فيه ذو الشَّنان وفنَّدا

إذا كان عِزهاةً عن اللهو والصبى

فكان حَجَرًا من يابِس الصخرِ جَلمَدا

قال أبو موسى: وهذا الشعر للأحوص، فلما سَمعها قال للخصيّ: ويحك! قُل لصاحب الشُّرَط يُصلي بالناس. وقال يومًا: والله إنِّي لأستحيي

أن أخلو بها، ولا أرى أحدًا غيرها. وأمر ببستانٍ، وأمر بحاجبه أن لا يُعلمه بأحد.

قال: فبينما هو معها أسرُّ الناس بها، إذ حذَفها بحبة رمان أو بعنبة وهي تضحك، فوقعت في فيها فشَرِقت فماتت، فأقامت عنده في البيت حتى جيفَت أو كادت تجيف، ثمَّ خرَج فدفنها، وأقام أيَّامًا، ثمَّ خرج وعليه الهمُّ باديًا، حتى وقَف على قبرها فقال:

فإن تسلُ عنكِ النفسُ أو تدع الصِّبى
فباليأسِ أسلو عنكِ لا بالتجلُّدِ
وكُلُّ خليلٍ لامَني فهو قائِلٌ
من اجلِكِ هذا هامةُ اليومِ أو غدِ

ثمَّ رجَع فما خرَج من منزله حتى خُرج بنعشه.

الفرزدق والبدوية الحسناء

أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن مُحَمَّد طاهر الدقاق، قال: أخبرني الرياشي يَرفعه عن الفرزدق، قال: أبِقَ غُلامٌ لرجل من نهشلٍ، فخرَجتُ في طلبه أريد اليمامة، وأنا على ناقةٍ لي عيساء، فلما صرتُ على ماءٍ لبني حنيفة ارتفعت سحابةٌ فرعدت وبرقت وأرخت عزاليَّها، فعدلتُ إلى بعض ديارهم، فسألتهم القِرَى، فأجابوا، فأنختُ ناقتَين وجلستُ تحت بيتٍ لهم من جريد النخل، وفي الدار جويرية سوداء، وفتاةٌ كأنها فِلقةُ قمرٍ، فسألتِ السوداء: لمن هذه العيساء؟ فأشارت إليَّ وقالت: لضَيفكم هذا. فعدَلَت إليَّ فسلَّمت وقالت: ممَّن الرجل؟ قلتُ: من بني تميم. قالت: من أيِّهم؟ قلت: من بني نهشل. قالت: فأنتم الذين يقول لكم الفرزدق:

إن الذي سَمَكَ السماء بنى لنا

بيتًا دعائمه أعزُّ وأطولُ

بيتٌ زرارةُ مُحتَبٍ بفنائه

ومُجاشِعٌ وأبو الفوارس نهشلُ

قلت: نعم. قال: فضحكَت، وقالت: فإن جريرًا هدم عليه بيتَيه حيث يقول:

أخزى الذي سَمَك السماء مُجاشِعًا

وأحلَّ بيتك بالحضيض الأوهَدِ

قال: فأعجبَتْني، فلما رأت ذلك في عيني قالت: أين تؤمُّ؟ قلت: اليمامة. فتنفَّسَت الصُّعَدَاء ثمَّ قالت:

تذكرتُ اليمامةَ إن ذكري

بها أهلُ المروءة والكرامة

ألا فَسَقَى المليكُ أجش جونًا

يجودُ بسحِّه تلك اليمامة

أُحيي بالسلام أبا نجيدٍ

وأهلٌ للتحية والسلامة

قال: فأنستُ بها، فقلت: أذاتُ خَدينٍ أنتِ أم ذاتُ بعلٍ؟ فقالت:

إذا رقَدَ النيامُ فإن عَمرًا

هو القمرُ المنيرُ المستنيرُ

وما لي في التبعُّل من مِراحٍ

ولو رُدَّ التبعُّلُ لي أسيرُ

ثمَّ سكتت كأنها تسمع كلامي، فأنشأت تقول:

تخيَّلْ لي أبا كعب بن عمرو

بأنك قد حُمِلتَ على سريرِ

فإن يكُ هكذا يا عمرو

إنِّي مُبكِّرة عليكَ إلى القبورِ

ثمَّ شهقَت شهقة فماتت. فقيل لي: هي عقيلة بنت النجاد بن النعمان بن المنذر، وسألتُ عن عمرو، فقيل لي: ابنُ عمها، وكان مُغرَمًا بها وهي كذلك، فدخلتُ اليمامة، فسألتُ عن عمرو فإذا به قد مات في ذلك اليوم من ذلك الوقت.

مات على قبر حبيبته

أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن مُحَّد بن طاهر الدقاق بقراءتي عليه، قال: أخبرني الرياشي عن الأصمعي عن جبر بن حبيب، قال: أقبلتُ من مكة أريد اليمامة، فنزلتُ بحيٍّ من عامِرٍ، فأكرَموا مثواي، فإذا فتًى حسن الهيئة قد جاءني، فسلَّم عليَّ، فقال: أين يريد الراكبُ؟ قلت: اليمامة. قال: ومن أين أقبلتَ؟ قلت: من مكة. فجلس إليَّ، فحادثني أحسن الحديث ثمَّ قال لي: أتأذنُ في صحبتك إلى اليمامة؟

قلت: أحبُّ خيرَ مصحوبً، فقام، فما لبث أن جاء بناقةٍ كأنها قلعةٌ بيضاء، وعليها أداةٌ حسنةٌ، فأناخها قريبًا من مبيتي، وتوسَّد ذراعها، فلما هممت بالرحيل أيقظته، فكأنه لم يكن نائمًا، فقام فأصلح رحله فركب وركبت، فقصَّر عليَّ يومي بصحبته، وسهُلَت عليَّ وعوثُ سفري، فلما رأينا بياضَ قصور اليمامة تمثل:

وأعرَضَتِ اليمامةُ واشمخرَّت

كأسيافٍ بأيدي مصلتينا

وهو في ذلك كله لا يُنشدني إلا بيتًا معُجبًا في الهوى، فلما قربنا من اليمامة مال عن الطريق إلى أبياتٍ قريبةٍ مِنَّا، فقلت له: لعلك تحاول حاجة في هذه الأبيات؟ قال: أجل! قلت: انطلق راشدًا. فقال: هل أنت موفٍّ

حق الصُّحبة؟ قلت: أفعل. قال: مِل معي! فمِلت معه، فلما رآه أهل الصرم ابتدروه، وإذا فتيانٌ لهم شارةٌ، فأناخوا بنا وعقلوا ناقتينا، وأظهروا السرور، وأكثروا البر، ورأيتهم أشد شيء له تعظيمًا. ثمَّ قال: قوموا إن شئتم. فقام، وقمتُ لقيامه، حتى إذا صِرنا إلى قبرٍ حديث التطيين ألقى نفسه عليه، وأنشأ يقول:

لئن منعوني في حياتي زيارةً

أُحامي بها نفسًا تملَّكها الحُبُّ

فلن يَمنعوني أن أجاور لحدَها

فيَجمع جسمَينا التجاور والتُّرْبُ

ثمَّ أنَّ أنَّاتٍ، فمات. فأقمتُ مع الفتيان حتى احتفروا له ودفنَّاه، فسألت عنه، فقالوا: ابن سيد هذا الحي، وهذه ابنةُ عمِّه، وهي إحدى نساء قومه وكان بها مُغرمًا، فماتت منذ ثلاث، فأقبلَ إليها وقد رأيتَ ما آل إليه أمره. فركبت وكأنني والله قد ثكلت حميمًا.

أربع نسوة وأربعة غربان

أخبرني بعض أهل الأدب أن بعض البصريّين أخبره، قال: كُنَّا لُمَّة نجتمع ولا يفارقُ بعضُنا بعضًا، فضجرنا من المقام في المنازل، فقال بعضنا: لو عزمتم فخرجنا إلى بعض البساتين، فخرجنا إلى بُستان قريبٍ مِنَّا، فبينا نحن فيه إذ سمعنا ضجَّة راعتنا، فقلت للبستاني: ما هذا؟ فقال: هؤلاء نسوةٌ لهنَّ قِصَّة. فقلت له: وما هي؟ قال: العِيان أبرُّ من الخبر، فقُم حتى أريك وحدك. قلت لأصحابي: أقسمت ألا يبرح أحدٌ منكم حتى أعود.

فنهضت وحدي، فصعدتُ إلى موضع أُشرف عليهن وأراهن، ولا يرينني، فرأيت نسوة أربعًا كأحسن ما يكون من النساء، ومعهنَّ خدم لهنَّ وأشياء قد أُصلحت من طعام وشرابٍ وآلةٍ، فلما اطمأن بهنَّ المجلس جاء خادمٌ لهن ومعه خمسة أجزاء من القرآن، فدفع إلى كل واحدة منهن جزءًا، ووضع الخامس بينهنَّ، فقرأنَ أحسن قراءة، ثمَّ أخذن الجزء الخامس فقرأت كل واحدة منهن ربع الجزء، ثمَّ أخرجت صورة معهنَّ في ثوب ديبقي فبسطنها بينهن فبكين عليها ودعونَ لها، ثمَّ أخذن في النوح، فقالت الأولى:

خلسَ الزمان أعزَّ مختَلَسِ

ويدُ الزمان كثيرة الخَلَسِ

لله هالكةٌ فُجعتُ بها

ما كان أبعدَها من الدنَسِ

أتتِ البشارة والنعيُّ بها

يا قُرْبَ مأتَمِها من العُرُسِ

ثمَّ قالت الثانية:

ذهَبَ الزمان بأنسِ نفسٍ عَنوَةً

وبقيت فردًا ليس لي من مؤنِس

أودى بمَلْكَ ولو تُفادَى نفسُها

لفَديتُها ممَّن أُعِز بأنفُسِ

ظلَّت تُكلِّمني كلامًا مُطمِعًا

لم أسترِبْ فيه بشيءٍ مؤيس

حتى إذا فترَ اللسان وأصبحَت

للموت قد ذبُلَت ذُبولَ النَّرجِسِ

وتسهَّلتْ منها محاسنُ وَجهِها

وعلا الأنينُ تحثُّه بتنفُّسِ

جعَلَ الرجاء مَطامعي يأسًا كما

قطَعَ الرجاء صحيفة المُتلَمِّسِ

ثمَّ قالت الثالثة:

جرَتْ على عهدِها الليالي

وأُحدثت بعدها أمورُ

فاعتضْتُ باليأس منكِ صَبرًا

فاعتدلَ اليأس والسرورُ

فلستُ أرجو ولستُ أخشى

ما أحدَثَتْ بعدكِ الدهورُ

فليبلُغ الدهرُ في مساتي

فما عسى جهده يضيرُ

ثمَّ قالت الرابعة:

عِلْقٌ نفيسٌ من الدنيا فُجِعتُ به

أفضى إليه الرَّدى في حومة القدَرِ

ويحَ المنايا أما تنفكُّ أسُهمُها

معلَّقاتٍ بصدرِ القوسِ والوترِ

يَبلى الجديدان، والأيام باليةٌ والدهرُ

يَبلى، وتَبلى جِدَّة الحَجَرِ

ثمَّ قُمن فقُلن بصوتٍ واحدٍ:

كُنَّا من المساعِدة نحيا بنفسٍ واحد

فماتَ نصف نفسي حين ثوى في الرَّمسِ

فما بقائي بعده وشطر نفسي عنده

فهل سمعتم قبلي في من مضى بمثلي

عاشَ بنصف روحِ في بدنٍ صحيحِ

ثمَّ تنحَّين وقُلن لبعض الخدم: كم عندك منهنَّ؟ قال: أربعة. قلن: ائتِ بهن. فلم ألبث إلا قليلًا حتى طلَع بقفص فيه أربعة غِربان مُكتَّفة، فوَضَع القفص بين أيديهن، فدعون بِعيدان، فأخذت كل واحدةٍ منهن عودًا، فغنَت:

لعمري! لقد صاح الغُراب ببَينِهم

فأوجَعَ قلبي بالحديث الذي يُبدي

فقلتُ له: أفصحتَ لا طِرْتَ بعدها

بريشٍ، فهل للقلبِ ويحَكَ من ردِّ!

ثمَّ أخذنَ واحدًا من الغربان، فنتفن ريشه حتى تركْنَه كأن لم يكن عليه ريش قط، ثمَّ ضربنه بقُضبانٍ معهن لا أدري ما هي حتى قتَلنه، ثمَّ غنَّت:

أشاقَك والليل ملقي الجِران

غُرابٌ ينوح على غُصنِ بان

أحصَّ الجناح شديد الصياح

يبكي بعينَين ما تُهملان

وفي نعَبات الغراب اغترابٌ

وفي البانِ بينٌ بعيدُ التداني

ثمَّ أخذن الثاني فشدَدْن في رجليه خيطَين وباعدن بينهما وجعلن يقلن له: أتبكي بلا دمعٍ وتُفرِّق بين الآلاف، فمَن أحق بالقتل منك؟ ثمَّ فعلن به ما فعلن بصاحبه. ثمَّ غنت الثالثة:

ألا يا غرابَ البَيْنِ لونُكَ شاحبٌ

وأنت بلوعات الفراق جديرُ

فبيِّن لنا ما قلتَ إذ أنتَ واقعٌ

وبيِّن لنا ما قلتَ حين تطير

فإن يكُ حقًّا ما تقولُ فأصبحت

همومُك شتَّى والجناح كسير

ولا زلتَ مكسورًا عديمًا لناصرٍ

كما ليس لي من ظالميَّ نصيرُ

ثمَّ قالت: أما الدعوى فقد استُجيبت، ثمَّ كسرت جناحيه، وأمرت ففُعل به ذلك. ثمَّ غنت الرابعة:

عشية ما لي حيلةٌ غير أنني بلَقطِ

الحصى والخط في الدار مولع

أخُطُّ وأمحو كلَّ ما قد خططته

بدمعيَ والغربان في الدار وَقَّعُ

ثمَّ قالت لأخواتها: أي قتلةٍ أقتله؟ فقلن لها: علِّقيه برجليه وشدي في رأسه شيئًا ثقيلًا حتى يموت. ففعلت به ذلك، ثمَّ وضعن عيدانهن، ودعَون

بالغداء فأكلن، ودعون بالشراب فشربن، وجعلن كلَّما شربْنَ قدحًا شربن للصورة مثله، وأخذنَ عيدانهن فغنين، فغنت الأولى كأنها تودِّع به:

أبكى فراقكُم عيني فأرَّقها

إن المحب على الأحباب بكَّاءُ

ما زال يعدو عليهم رَيبُ دهرهم

حتى تفانوا، وريب الدهر عدَّاء

ثمَّ غنت الثانية:

أما والذي أبكى وأضحك والذي

أمات وأحيا، والذي أمرُه الأمرُ

لقد تركتْني أحسُدُ الوحش أن أرى

أليفَين منها لا يَروعهما الذعرُ

ثمَّ غنت الثالثة:

سأَبكي على ما فات من صبابةً

وأندُبُ أيام الأماني الذواهبِ

أحينَ دنَنَا من كنتُ أرُو دُنوَّه

رمَتْني عيونُ الناس من كل جانبِ

فأصبحتُ مرحومًا وكنت مُحَسَّدًا

فصبرًا على مكروه مرِّ العَوَاقِبِ

ثمَّ غنت الرابعة:

سأُفني بك الأيام حتى يَسُرَّني بك

الدهرُ أو تَفنى حياتي مع الدهرِ

عزاءً وصبرًا! أسعداني على الهوى

وأحمدُ ما جرَّبت عاقبةُ الصبرِ

ثمَّ أخذت الصورة فعانقتها، وبكت، وبكَين، ثمَّ شكَون إليها جميع ما كنَّ فيه، ثمَّ أمرن بالصورة فطويت، ففرِقتُ أن يتفرَّقن قبل أن أكلِّمهُن، فرفعت رأسي إليهن فقُلت: لقد ظلمتنَّ الغربان.

فقالت: لو قضيتَ حق السلام، وجعلته سببًا للكلام، لأخبرناك بقصة الغربان. قال: قلت: إنما أخبرتكنَّ بالحق. قلن: وما الحق في هذا، وكيف ظلمناهن؟ قلت: إن الشاعر يقول:

نعب الغراب برؤية الأحباب

فلذاكَ صِرت أحبُّ كل غُرابِ

قالت: صحَّفتَ وأحلتَ المعنى، إنما قال: بفرقة الأحباب، فلذاك صِرت عدوَّ كل غاب. فقلت لهن: فبالذي خصَّكُن بهذا المجلس، وبحقِّ صاحبة الصورة، لما خبرتني بخبركن؟ قلن: لولا أنك أقسمت علينا بحق من يجبُ علينا حقه ما أخبرناك.

كنَّا صواحب مجتمعات على الأُلفة، لا تشرب مِنَّا واحدة البارد دون صاحبتها، فاختُرِمَت صاحبة الصورة من بيننا، فنحن نصنعُ في كل موضع نجتمع فيه مثل الذي رأيت، وأقسمنا أن نقتل في كل يوم نجتمِعُ فيه ما وجدنا من الغربان لعلة كانت. قلت: وما تلك العلة؟ قلن: فرَّق بينها وبين

أُنسٍ كان لها، ففارَقت الحياة، فكانت تذمُّهنَّ عندنا وتأمر بقتلهن، فأقلَّ ما لها عندنا أن نمتثل ما أمرت به، ولو كان فيك شيء من السواد لفَعلنا بك فِعلنا بالغربان.

ثمَّ نهضنَ فمضين، ورجعتُ إلى أصحابي فأخبرتهم بما رأيت، ثمَّ طلبتهنَّ بعد ذلك، فما وقعت لهنَّ على خبر ولا رأيت لهنَّ أثرًا.

إياس وابنة عمه صفوة

أخبرنا أبو القاسم علي بن المحسن بن علي التَّنُوخِي في ما أجاز لنا، قال: أخبَرَنِي الهيثم بن عدي أن إياس بن مُرَّة بن مُصعَب القيسي كان له أخٌ يُقال له فِهر، وكانا يَنزلان الحيرة، وأن فِهرًا ارتَحَلَ بأهله وولده، فنزل بأرض السراة وأقام مُرَّة بالحيرة، وكانت عند مرة امرأة من بكر بن وائل، فلبثَت معه زمانًا لم يُرزَق منها ولدًا حتى يئس من ذلك. ثمَّ أُتي في منامه ليلةً من ذلك، فقيل له: إنك إن باشرت زوجتك من ليلتك هذه رأيتَ سرورًا وغِبطةً، فانتَبَه فباشرَها فحملت، فلم يزل مسرورًا إلى أن تمَّت أيَّامها، فولدت له غُلامًا فسماه إياسًا لأنه كان آيِسًا منه، فنشأ الغلام منشأً حسنًا.

فلما ترعرع ضمَّه أبوه إليه، وأشركه في أمره، وكان إذا سافر أخرَجَه معه لقلة صبره عنه، فقال له أبوه يومًا: يا بني، قد كبرت سني، وكنتُ أرجوك لمثل هذا اليوم، ولي إلى عمِّك حاجة، فأحب أن تشخص فيها. فقال له إياس: نعم يا أبه، ونِعمَ عين وكرامة، فإذا شئتَ فأنا لحاجتك. فأعلَمَه الحاجة، فخرج متوجِّهًا حتى أتى عمه، فعظُم سروره به وسأله عن سبب قدومه، وما الحاجة فأخبره بها، ووعده بقضائها، فأقام عند عمه أيَّامًا ينتظر قضاء الحاجة.

وكان لعمه بنتٌ يُقال لها صفوة ذات جمال وعقل، فبَينا هو ذات يوم جالسٌ بفناء دارِهِم إذ بدت له صفوةُ زائرةً بعض أخواتها، وهي تَهادى بين جوارٍ لها، فنظر إليها إياسٌ نظرةً أورثت قلبه حسرةً، وظلَّ نهارَه ساهيًا، وبات وقد اعتكرت عليه الأحزان ينتظر الصباح، يرجو أن يكون فيه النجاح، فلما بدا له الصباح خرَج في طلبها ينتظر رجوعها، فلم يلبث أن بدت له، فلما نظَرت إليه تنكَّرت ثمَّ مضت فأسرعت، فمر يسعى خلفها يأمُلُ منها نظرة، فلم يصل إليها، وفاتَتْه فانصرف إلى منزله، وقد تضاعف عليه الحزن واشتد الوجد، فلبث أيَّامًا وهو على حاله إلى أن أعقبه ذلك مرضًا أضناه وأنحل جسمه، وظلَّ صريعًا على الفراش.

فلما طال به سُقمُه وتخوَّف على نفسِه بَعَثَ إلى عمه ليَنظر إليه ويوصيه بما يُريد، فلما رآه عمُّه ونظر إلى ما به سبَقَتْه العبرة إشفاقًا عليه، فقال له إياس: كفَّ، جُعلت فداك يا عم، فقد أقرَحْتَ قلبي. فكف عن بعض بُكائه، فشكا إليه إياس ما يجد من العلة، فقال له: عزَّ والله عليَّ يا ابن أخي، ولن أدع حيلةً في طلب الشفاء لك. فانصرف إلى منزله وأرسل إلى مولاةٍ له كانت ذات عقلٍ فأوصاها به وبالتعاهُد له والقيام عليه.

فلما دخلَتِ المولاة عليه فتأمَّلته عَلِمَت أن الذي به عِشقٌ، فقعدت عند رأسه، فأجرت ذكر صفوة لتَستيقِنَ ما عنده، فلما سمع ذكرها زفر زفرةً، فقالت المرأة: والله ما زفر إلا من هوًى داخله، ولا أظنُّه إلا عاشِقًا. فأقبلت عليه كالمُمازحة فقالت له: حتى متى تُبلي جسمك، فوالله ما أظنُّ الذي بك إلا هوى. فقال لها إياس: يا أمَّه، لقد ظننتِ بي ظنَّ سوءٍ، فكفي عن مُزاحك.

فقالت: إنك والله لن تُبديه إلى أحدٍ هو أكتم له من قلبي. فلم تزل تُعطيه المواثيق وتقسم عليه إلى أن قالت له: بحقِّ صفوة! فقال لها: لقد أقسمت عليَّ بحق عظيمٍ لو سألتِني به روحي لدفعتها إليك. ثمَّ قال: والله يا أمه ما أُعظِمَ دائي إلا بالاسم الذي أقسمتِ عليَّ بحقِّه، فاللهَ اللهَ في كتمانه وطلب وجهِ الحيلة فيه.

فقالت: أما إذا أطلَعْتَني عليه، فسأبلُغُ فيه رِضاك إن شاء الله، فَسُرَّ بذلك، وأرسل معها بالسلام إلى صفوة. فلما دخلَتْ عليها ابتدأتها صفوةُ بالمسألة عن الذي بلَغها من مرضه وشدة حاله، فاستبشَرتِ المولاة بذلك، ثمَّ قالت: يا صفوة، ما حالةُ من يبيت الليل ساهِرًا محزونًا يَرعى النجوم ويتمنى الموت؟ فقالت صفوة: ما أظنُّ هذا على ما ذكرتِ بباقٍ، وما أسرع منه الفِرَاق.

ثمَّ أقبلت على المولاة فقالت: إنِّي أريد أن أسألك عن شيءٍ، فبحقِّي عليك لما أوضحتِه. فقالت: وحقك إن عرفتُه لا كتمتُك منه شيئًا. قالت: فهل أرسلك إياس إلى أحدٍ من أهل وده في حاجة؟ فقالت المولاة: والله لأصدُقنَّك، والله ما جُلُّ دائه وعِظَم بلائه إلا بك، وما أرسلني بالسلام إلا إليكِ، فأجيبيه إن شئتِ أو دعي. فقالت: لا شفاه الله، والله لولا ما أوجَبَ من حقك لأسأتُ إليكِ، وزجَرَتْها. فخرجت من عندها كئيبة، فأتَتْه فأعلمته، فازداد على ما كان به من مرضه، وأنشأ يقول:

كتمتُ الهوى حتى إذا شبَّ واستوَت

قواه أشاع الدمعُ ما كنتُ أكتُمُ

فلمَّا رأيتُ الدمعَ قد أعلن الهوى

خلعتُ عِذاريَ فيه، والخلعُ أسلمُ

فيا ويحَ نفسي كيف صبري على

الهوى وقلبي ورُوحيَ عندَ من ليس يرحمُ

قال: ثمَّ إن عمه دخل عليه ليَعرف خبره، فقال له: يا عم، إنِّي مُخبرك بشيءٍ لم أُخبرك به حتى برح الخفاء ولم أُطق له محملًا. فأخبره الخبر، فزوَّجه فأفاق وبرأ من عِلَّتِه.

لقاء في الجنة

أخبرنا أحمد بن علي بن مُحَمَّد السواق، قال: أخبرنا مُحَمَّد بن أحمد بن فارس، قال: حدَّثنا عبد الله بن إبراهيم الزبيبي، قال: حدثا مُحَمَّد بن خلف، قال: حدَّثنا عبد الله بن عبيد، قال: حدَّثني مُحَمَّد بن الحسين في إسنادٍ لا أحفظه، قال: عَلِق فتًى من الحي بنتَ عم له، فخطبها إلى أبيها فرغبَ بها عنه، فبلغ ذلك الجارية فأرسلَت إليه: قد بلَغني حُبُّك إياي، وقد أحببتُك لذلك لا لغيره، فإن شئتَ خرجتُ إليك بغير علم أهلي، وإن شئت سهَّلت لك المجيء. فأرسل إليها: كل ذلك لا حاجة لي فيه، إنِّي أخاف أن يُلقيني حُبُّكِ في نارٍ لا تُطفأ وعذاب لا يَنقطع أبدًا. فلما جاءها الرسول بكت ثمَّ قالت: لا أراكَ راهِبًا، والله ما أحدٌ أولى بهذا الأمر من أحدٍ، إن الخلق في الوعد والوعيد مشتركون.

قال: فتدرَّعت الشَّعَرَ وأقبلَت على العبادة، فكَبَرَ ذلك على أهلِها وعلى أبيها، فلم تزل تتعبد حتى ماتت. فكان الفتى يأتي قبرها كل ليلة، فيدعو لها ويستغفر وينصرف. فأخبرنا أنه رآها في المنام فقال لها: فلانة؟ قالت: نعم، ثمَّ قالت:

نعمَ المحبَّةُ يا سؤلي محبَّتكم

حُبٌّ يجرُّ إلى خيرٍ وإحسانِ

إلى نعيمٍ وعيشٍ لا زوالَ له

في جنة الخلدِ خلدٍ ليس بالفاني

قال: فقلت لها: أيتها الحبيبة، أفتذكُرينَني هناك؟ قال: فقالت: والله إنِّي لأتمنَّاك على مولاي ومولاك، فأعنِّي على نفسك بطاعته، فلعله يجمع بيني وبينك في داره. ثمَّ ولَّت: فقلت لها: متى أراك؟ قالت: تراني قريبًا إن شاء الله. قال: فلم يلبث الفتى بعد هذه الرؤيا إلا قليلًا حتى مات فدُفِنَ إلى جانبِها.

زليخا ويوسف

أخبرنا القاضي أبو علي زيد بن أبي حَيُّوَيْهِ، قال: حدَّثنا أبو مُحَمَّد الحسن بن عمر بن علي الجلباني، قال: حدَّثنا مُحَمَّد بن سعيد قال: حدَّثنا ابن عليل المطيري قال: حدَّثنا ابن الدروقي قال: حدَّثنا سلمة بن شبيب قال: حدَّثنا إسماعيل بن عبد الكريم عن عبد الصمد بن معقل عن وهب، قال: لما خلَتْ زُلَيَخا بيوسف عليه السلام ارتعد يوسفِ، فقالت زليخا: من أيِّ شيءٍ تُرْعَد، إنما جئتُ بك لتأكل وتشرب وتشتم رائحتي وأشتم رائحتك. قال: يا أمة الله، لستِ لي بحُرمةٍ. قالت: فمن أي شيء تَفزع؟ قال: من سيِّدي. قالت: الساعة إذا نزل من الركوب وأخذتُ بيدي الكأس المُذَهَّب والإبريق المُفضض سقيته شُرْبَةً من السم وألقيت لحمه عن عظمه. قال لها: لا تفعلي، فلست ممن يَقتُلُ المُلوكَ، وإنما أخاف من إله السماء. قالت له: فعندي من الذهب والفضة والجواهر والعقيق ما أفديك منه. قال: هو لا يقبَلُ الرُّشا. قالت: دع عنك هذا! قم اسقِ أرضي. قال: لا أزرعُ أرض غيري. قالت: فارفع رأسك انظُر إليَّ! قال: أخاف العمى في آخر عمري. قالت: فمازِحْني تُرجِع إليَّ نفسي. قال: يا أمة الله! لستِ لي بحُرمَةٍ فأمازِحَكِ. قالت: فلا صبر لي عن هذه الذؤابة التي بلغَت إلى قدميك، ليتَني وسمتُها مرةً واحدةً. قال: أخشى أن تُحشى من قطران جهنَّم،

يا هذه، هوَ ذا الشيطان يُعينك على فتنتي، لا تُشوِّهي بخَلقي ذا الحسن الجميل، فأُدعى في الخلق زانيًا وفي الوحوش خائِنًا وفي السماء عبدًا كفورًا.

قال وهبٌ: ولان من يوسف عليه السلام مقدارُ جناحِ بعوضة، فارتفعت الشهوة إلى وجهه، فاستنار، وكان سِرواله معقودًا تسعَ عشرةَ عقدةً، فحلَّ أول عقدة، وإذا قائلٌ يقول من زاوية البيت: إن الله كان عليكم رقيبًا! ثمَّ حلَّ العقد الثانية، فإذا قائلٌ يقول: ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن. فأوحى الله عز وجل إلى جبريل: الحقه، فإنه المعصوم في ديوان الأنبياء! فانفرَج السقف في أقل من الملح، فنزل جبريل عليه السلام فضرب صدره ضربة، فخرجت شهوته من أطراف أنامله، فنقص منه ولَدٌ، فوُلِد لكُلِّ رجُل من أولاد يعقوب عليه السلام اثنا عشر ولدًا، ما خلا يوسف عليه السلام فإنه وُلِدَ له أحدَ عَشَرَ. فقال: يا رب، ماذا خبري؟ لم ألحق بإخوتي في الولد. فأوحى الله عز وجل إليه أن الشهوة التي خرجت من أنامِلك حاسبناك بها.

وبإسناده قال وهبٌ: لما أراد الله بيوسف الخير قامت زُلَيخا إلى طاقٍ لها، فأرخت عليه سِترًا، وكان لها في الطاق صنمٌ من خشب تعبُدُه، فقال لها يوسف عليه السلام: ماذا صنعت؟ قالت: استحييتُ من إلهي أن يراني أصنع الفاحشة. قال: فأنتِ تَستحيين من إلهٍ من خشب لا يضُر ولا ينفع ولا يَخلُقُ ولا يسمعُ ولا يبصر، فأنا أستحيي ممن أكرم مثواي وأحسن مأواي. واستبَقا الباب. قالت زُليخا: يا يوسف، بُليتُ منك بخصلتَين: ما رأيت بشرًا أحسن منك، والثانية زوجي عِنّينفلما تزوَّجها يوسف عليه السلام فأبصر بعينَيها حَوَلًا، قال: يا زُليخا! أوَ حَوْلاء؟ قالت له: ما

علِمتَ؟ قال: لا والله! قالت: ما استحللتُ أن أملأ عيني منك.

قال وهب بن منبّه: وكانت زُلَيخا ممنوعةً من الشقاء، وكانت أجمل من بطشابع صاحِبة داود عليه السلام.

زوجتان من الحور العين

أخبرنا أبو طالب مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن إبراهيم بن غيلان قراءةً عليه غير مرة، في سنة تسع وثلاثين وأربعمائة، قال: حدَّثنا أبو بكر مُحَمَّد بن عبد الله الشافعي إملاءً، قال: حدَّثني بكرُ بن مُضَر أن عبد الكريم بن الحارث حدَّثه عن رجلٍ أنهم كانوا مرابطين في حِصنٍ، فخرج رجلان إلى الجيش، فقال أحدهما لصاحبه: هل لك أن تغتسل لعلَّ الله أن يُعرِّضَنا للشهادة؟ فقال صاحبه: ما أريد أن أغتَسِل. فاغتسل صاحبُه، فلما فرغ سقط حَجَرٌ من الحصن فأصاب الرجل، فمررتُ بهم وهم يجرُّونه إلى خيامه، فسألتهم ما شأنه، فأخبروني الخبر، فانصرفت إلى أصحابي، ثمَّ رجعت إليهم فأقمتُ عندهم، وهم يشكُّون هل مات أو عاد إليه الروح.

فبينَا هو كذلك إذ ضَحِكَ، فقلنا: إنه حي. ثمَّ مكث مليًّا ثمَّ ضحك، ثمَّ مكث مليًّا ثمَّ بكى، ففتح عينيه. فقلنا: أبشِر يا فُلان، فلا بأس عليك، لقد رأينا منك عَجَبًا، كُنَّا نظن أنك قد مُتَّ إذ ضَحِكتَ، ثمَّ مكثت مليًا. قال: إنِّي لمَّا أصابني ما أصابني أتاني رجلٌ فأخذ بيدي فمضى بي إلى قصرٍ من ياقوتةٍ، فوقف بي على الباب، فخرج إليَّ غِلمان مُشمِّرين لم أرَ مِثلَهُم، فقالوا: مرحبًا بسيدنا! فقلت: من أنتم بارك الله فيكم؟ قالوا: نحن خُلِقنا لك.

ثمَّ مضى بي حتى أتى بي قصرًا آخر، وخرج إليَّ منه غِلمانٌ مُشمِّرين هم أفضل من الأولين، فقالوا: مرحبًا وأهلًا بسيدنا! فقلت: من أنتم بارك

الله فيكم؟ فقالوا: نحن خُلِقنا لك.

ثمَّ مضى بي إلى بيتٍ لا أدري من ياقوتٍ أو زَبَرجَدٍ أو لؤلؤٍ، فخرج إليَّ غِلمانٌ مشمِّرين سوى الأولين، فقالوا مثل ما قال الأولون، وقلت لهم مثل ذلك، فوقف بي على باب البيت فإذا بيتٌ مبسوطٌ في فُرشٌ موضوعةٌ بعضها فوق بعض ونمارِقُ مبسوطة، فأدخلني البيت وفيه بابان، فألقيتُ نفسي بين الوسادتين، فقال: أقسمت عليك إلا ألقيت نفسك فوق هذه الفُرُش، فإنك قد نَصِبتَ في يومك هذا. فقمت فاضطجعت على تلك الفرش على وِطاءٍ لم أضع جنبي على مثله قط.

فبَينَا أنا كذلك إذ سمعتُ حِسًّا من أحد البابين، فإذا أنا بامرأة لم أرَ مثل جمالها، وعليها حُليٌّ وثيابٌ لم أرَ مِثلَها، وأقبلت حتى وقفت عليَّ، ولم تتخطَّ تلك النمارق، ولكن أقبَلَت بين السماطين حتى وقَفَت وسلَّمت، فرددت عليها السلام. فقلت: من أنتِ بارك الله فيكِ؟ فقالت: أنا زوجتك من الحور العين. فضحكت فرحًا بها، فأقامت تحدِّثني وتُذكِّرني أمر نساء أهل الدنيا كأن ذلك معها في كتاب.

فبَينَا أنا كذلك إذ سمعتُ حِسًّا من الشق الآخر، فإذا أنا بامرأةٍ لم أرَ مثلها ولا مثل حليها وجمالها، فأقبلَت حتى وقفت كنحوِ ما صنعت صاحبتها، ثمَّ مكثتْ تحدِّثُني، فأقصرت الأخرى، فأهويتُ بيدي إلى إحداهما، فقالت: تأنَّ لم يأنِ لك، إن ذلك مع صلاة الظهر. فما أدري أقالت ذلك أم رُميَ بي إلى صَحراء، فلم أرَ منهم أحدًا، فبكيتُ عند ذلك. فقال الرجل: فما صلَّيتُ الظهر أو عند الظهر حتى قبضه الله عز وجل.

عظة القاتلة

أخبَرَنا أبو إسحاق إبراهيم بن سعيد بقراءتي عليه بمصر، سنة خمس وخمسين قال: أخبرنا أبو صالح السمرقندي قال: حدَّثني رجلٌ من أهل المدينة، ونحن ببلاد الروم في سَرِيَّة، عليها مُحَمَّد بن مُصْعب الطرطوسي، قال: كان بالمدينة غُلامٌ من بني مخزوم موصوف ببراعة الجمال، فإذا كان في أيام الحج حَجَبَه أبوه عن الخروج إلى المَسجِد حتى يَصدُرَ آخرُ الحاجِّ إشفاقً عليه من أعيُنِ الناس وحَذَرًا عليه منهم، فاشتهر بجماله ووُصِفَ بكمالِه، فكانت الرفاق تتحدَّثُ بحديثه، فقَدِمَ علينا رجُلٌ من الصوفية عند انقضاء عُمرَتِهِم، وقد رجعوا من الحج لزيارة قبر النبي ﷺ وما بالمدينة يومئذٍ أحدٌ من الحاج غيرهم، فخرج المخزومي في ذلك اليوم، فأتى قبر النبي ﷺ فسلَّم عليه، ثمَّ قعد في الروضة ينتظر الصلاة، فوقف عليه طلحةٌ يَنظُرُ إليه مليًّا، فرأى شيئًا لم يرَ مثله قط، ثمَّ قال: يا فتى، اسمع عني مقالتي واعرض على قلبِكَ كلامي، وافهم مني عِظَتي، فإني قد بدأتك بالنصيحة لِما أمَّلتُ لك من الله عز وجل فيها من حسن الجزاء وجميل الثناء.

يا حبيبي، أتدري مَن يرَاك، ومَن يَشهَد عَلَيكَ؟ قال: ومَن هُما يا عم؟ قال: الله تعالى يراك، ونبيه ﷺ يشهد عليه، فإياك واقتراف المعاصي بحضرة نبيك ﷺ، فإنك لا تأتي أمرًا في هذه البلدة يكونُ عليك فيه تبعة إلا والله تعالى له حفيظٌ والنبي ﷺ عليك به شهيدٌ وأصحابه لك خُصومٌ، وكفى

خصمًا أن يكون القاضي عليه خالِقُه والشاهد عليه نبيه ﷺ والخصوم له خيرةُ في الله من خلقِه الصالحون من عِباده. فانتفض الغلام وسقط مغشيًّا عليه، واجتمع الناس فاحتَمَلوه إلى منزله، فما أتى عليه ثلاثة أيام حتى مات.

رابعة العدوية الصوفية ومنامها

أخبرنا القاضي أبو الحسين أحمد بن علي بن الحسين التَّوَّزِي بقراءتي عليه، قال: حدَّثني مسمع بن عاصم، قال: قالت لي رابعة العدوية: اعتللتُ عِلَّة قطعتني عن التهجد وقيام الليل، فمكثت أيَّامًا أقرأ جزئي إذا ارتفع النهار، لما يُذكر فيه أنه يُعدَّل بقيام الليل. قالت: ثمَّ رزقني الله عز وجل العافية فاعتادَتْني فترةٌ في عقبِ العلة، وكنت قد سكنت إلى قراءة جزئي بالنهار، فانقطع عني قيام الليل.

قالت: فَبَينَا أنا ذات ليلة راقدةٌ أريتُ في منامي كأني رُفِعتُ إلى روضةٍ خضراء، ذات قُصورٍ ونَبتٍ حسن، فبَينَا أنا أجولُ فيها أتعجَّب من حُسنِها إذا أنا بطائرٍ أخضَرَ وجاريةٍ تُطاردُه، كأنها تريد أخذه، قالت: فشغلني حسنُها عن حسنه، فقلت: ما تريدين منه؟ دعيه، فوالله ما رأيتُ طائرًا قط أحسنَ منه.

قالت: بلى. ثمَّ أخذت بيدي فأدارت بي في تلك الروضة حتى انتهت بي إلى بابِ قصرٍ فيها، فاستفتحت، ففُتح لها، ثمَّ قالت: افتحوا لي بيت لَمْقَة. قالت: ففُتِح لها بابٌ شاع منه شعاعٌ استنار من ضوء نوره ما بين يدي وما خلفي، وقالت لي: ادخلي، فدخلت إلى بيتٍ يحارُ فيه البصر تلألؤًا وحُسنًا، ما أعرِفُ له في لدنيا شبيهًا أشبّهُه به.

فبَينَا نحنُ نجولُ فيه إذ رُفِعَ لنا بابٌ يُنفَذ منه إلى بُستان، فأهوَت نحوَه وأنا معها، فتلقَّانا فيه وُصَفاءُ كأن وجوههم اللؤلؤ، بأيديهم المجامرُ، فقالت لهم: أين تريدون؟ قالوا: نريد فُلانًا قُتِلَ في البحر شهيدًا. قالت: أفلا تُجمِرُونَهذه المرأة؟ قالوا: قد كان لها في ذلك حظ فتركته.

قالت: فأرسلت يدها من يدي، ثمَّ أقبلت عليَّ فقالت: صلاتُكِ نورٌ والعِبادُ رُقودُ

ونوم ضِدٌّ للصلاةِ عنيدُ

وعمرُك غُنم إن عقلتِ

ومهلةٌ يسيرُ ويَفنى دائمًا ويبيدُ

ثمَّ غابت من بينِ عينيَّ، واستيقظتُ حين تبدَّى الفَجرْ، فوالله ما ذكرتها فتوهَّمتها إلا طاش عقلي، وأنكرتُ نفسي. قال: ثمَّ سقطت رابعة مغشيًّا عليها.

ذو الرُّمَّة ومي

أنبأنا أبو جعفر مُحَمَّد بن أحمد بن المسلمة، قال: أنبأنا أبو عُبيد الله مُحَمَّد بن عمران المَرْزُباني، قال: حدَّثني مُحَمَّد بن أحمد الكاتب، قال: حدَّثنا أحمد بن أبي خيثمة عن مُحَمَّد بن زياد الأعرابي، قال: حدَّثني أبو صالح الفزاري، قال: ذُكِرَ ذو الرُّمَّة في مجلِسٍ فيه عدةٌ من الأعرَاب، فقال عصمةُ بن مالك الفَزاري شيخٌ منهم، بلغ مائة وعشرين سنة: إيَّاي فَسَلوا عنه! كان حُلو العينين، حسن المضحك، برَّاق الثنايا، خفيف العارضين، إذا نازَعَك الكلام لا تسأم حديثه، وإذا أنشد أبرَّ وحَسُنَ صوتُه.

جمعني وإياه مربَعٌ مرَّة، فأتاني فقال: هيا عصمةُ! إن ميًّا مِنقَرية، ومِنقَرٌ أخبثُ حي وأقوفُه لأثر، وأثبتُه في نظر، وأعلمه بِبَصر، وقد عرفوا آثار إبلي، فهل من ناقةٍ نزدارُ عليها مَيًّا؟ قال: إي والله، الجُؤذُر بنتٌ يَمانيةٌ. قال: فعلينا بها! فجئت بها، فركب وردفتُه، ثمَّ انطلقنا حتى نَهبط على مي، وإذا الحيُّ خُلوفٌ، فلمَّا رأتنا النسوة عَرفنَ ذا الرمَّة، فتقوَّضن من بيوتِهِنَّ حتى اجتَمَعن، وأنخنا قريبًا وجئناهن وجلسنا، فقالت ظريفةٌ منهن: أَنشِدنا يا ذا الرُّمَّة. فقال لي: أنشدهنَّ، فأنشدت قوله:

وقفتُ على رَبْعٍ لميَّة ناقتي

فَما زِلتُ أبكي عنده وأخاطبه

فلما انتهيت إلى قوله:

نَظَرتُ إلى أظعانِ ميٍّ كأنها

ذُرَى النخل أو أثلٌ تميلُ ذوائبه

فأسبَلَتِ العَيْنانِ والقلبُ كاتِمٌ

بمُغرورِقٍ نمَّت عَليَّ سواكبُه

بكى وامِقٌ جاء الفراق ولم يُجِل

جوائِلَهَا، أسراره أو معاتبه

قالت الظريفة: لكن اليوم فليُجل، ثمَّ مضيتُ، فلما انتهيت إلى قوله:

وقد حلَفَت بالله ميَّةُ ما الذي

أحادِثُها إلا الذي أنا كاذبه

إذن فرَماني الله من حيث لا أرى

ولا زال في أرضي عَدوٌّ أحاربه

قالت مي: وَيحك يا ذا الرُّمَّة، خَفْ عواقب الله عز وجل. ثمَّ مضيتُ حتى انتهيت إلى قوله:

إذا سَرَحَت من حُبِّ ميٍّ سَوَارِحٌ

على القَلْبِ آتَتْهُ جَميعًا عَوَازِبُه

فقالت الظريفة: قتلتِه قتَلَكِ الله! فقالت مية: ما أصحَّه وهنيئًا له. قال: فتنفَّس ذو الرمة تنفُّسةً كاد حرُّها يَطيرُ بلحيته، ثمَّ مضيت حتى انتهيت إلى قوله:

إذا نازعتْكَ القولَ ميةُ أو بدا لك

الوجه منها أو نضا الدِّرع سالبُه

فيا لك من خدٍّ أسيلٍ ومنطقٍ

رخيمٍ ومن خُلْق تعلَّل جاذبه

فقالت الظريفة: هذا الوجه قد بَدا، وهذا القولُ قد تُنوزِعَ، فمن لنا بأن ينضو الدَّرْعَ سالِبُه؟ فالتفتت إليها مي فقالت: ما لكِ قاتلك الله؟ ماذا تَجنينَ به؟ فتضاحكت النسوة، فقالت الظريفة: إن لهذَينِ لشأنًا، فقُم بنا عنهُما. فقُمنَ، وقمتُ فصرتُ إلى بيتٍ قريبٍ منهما أراهُما، ولا أسمع كلامَهُما إلا الحرفَ بعد الحَرْفِ، فوالله ما رأيته بَرِحَ مكانَه ولا تَحَرَّك، وسمعتها تقول: كذبتَ والله، فوالله ما أدري ما الذي كذَّبتْه فيه. فتحدَّثا ساعةً، ثمَّ جاءني ومعه قُوَيْرِيرَة فيها دُهْنٌ طَيِّبٌ، فقال هذه دُهنَةٌ أتحفَتْنا بها مي، فشأنك بها. وهذه قلائدُ زوَّدَتناها للجُؤذُرِ، فلا والله لا قلَّدتُهُن بعيرًا أبدًا. ثمَّ عقدهُنَّ في ذؤابة سيفه.

قال: فانصَرفنا، فلم نزل نختلف إليها مَرْبَعَنا حتى انقضى. ثمَّ جاءني يومًا، فقال: يا عصمةُ! قد ظَعنت مي، فلم يَبق إلا الديار، والنظر في الآثار، فانهَض بنا ننظر إلى آثارِها، فخَرَجنا حتى وَقَفنا على دِيارِها، فجعل ينظر ثمَّ قال:

ألا فاسلَمي يا دارَ ميٍّ على البِلى

ولا زال مُنهَلًّا بجرعائك القَطْرُ

فإن لم تكوني غير شامٍ بقفرةٍ تَجُرَّ

بها الأذيال صَيفيَّةٌ كُدْرُ

ثمَّ انتضحَت عيناه بعَبرَةٍ، فقلت: مَه! فقال: إِنّي لجَلْدٌ، وإن كان مني ما ترَى، فما رأيتُ صبابةً قط، ولا تجلُّدًا أحسَنَ من صَبابته وتجلُّده يومئذٍ. ثمَّ انصرفنا، فكان آخر العهد به.

المرقِّش الشاعر وأسماء

كتب إليَّ أبو غالب بن بشران من واسط: حدَّثنا ابن دينار، قال: حدَّثنا أبو الفرج مُحَمَّد بن علي الأصفهاني في كتاب الأغاني: كان من خبرِ مُرقِّشٍ الأكبرِ أنه عشق ابنة عمٍّ له يُقال لها أسماء بنت عوف بن مالك، عَلِقَها وهو غلامٌ، فخطَبها إلى أبيها، فقال له: لا أُزوجها حتى تُعرَف بالناس، وهذا قبل أن يخرُجَ ربيعةُ من أرض اليمن، فكان يعِدُهُ فيها المواعيد. ثمَّ انطلق مُرقِّش إلى ملك من الملوك، وكان عنده زمانًا، ومدَحه فأجازه، وأصاب عوفًا زمانٌ شديدٌ، فأتاه رجلٌ من مُراد أحد بني عُطَيف فأرغبه في المال، فزوَّجه أسماء على مائة من الإبل، ثمَّ تنحَّى عن بني سعد بن مالك.

ورجع مُرقش، فقال إخوتُها: لا تخبروه إلا أنها ماتت، فذبحوا كبشًا فأكلوا لحمه ودفنوا عظامه، ولفُّوها في ملحفة ودفنوها، فلمَّا قَدِمَ مرقشٌ عليهم أخبروه أنها ماتت، وأتوا به موضِعَ القبر، فنظر إليه، وكان بعد ذلك يَعتاده ويزوره.

فبَينَا هو ذات يوم مضطجعٌ، وقد تغطَّى بثوبه، وابنا أخيه يلعبان بكعابٍ لهما إذ اختصَما في كَعب، فقال أحدهما: هذا كعبي أعطانيه أبي من الكبش الذي دفَنوه. وقالوا: إذا جاء مرقشٌ أخبرناه أنه قبرُ أسماء، فكشف

مرقشٌ عن رأسه ودعا الغُلام، وقد ضنيَ ضنًى شديدًا، فسأله عن الحديث فأخبره به، وبتزويج المرادي أسماء، فدعا مرقش وليدةً له ولها زوجٌ من غَفيلةَ كان عسيفًا لمرقِّش، فأمرها بأن تدعو له زوجها فدعته، وكانت له رَوَاحل، فأمره بإحضارها ليَطلُب المرادي فأحضرها فركبها، ومضى في طلبه، فمرض في الطريق حتى صار لا يُحمل إلا مَعرْوضًا.

وإنهما نزلا كَهفًا بأسفلِ نجران، وهي أرضُ مُرَاد، ومع الغفلي امرأته وليدة مرقش، فسمع مرقشٌ زوجِ الوليدة يقول لها: اتركيه، فقد هلك سَقمًا وهلكنا معه جوعًا وضَرًّا، فجعلت الوليدة تبكي من ذلك، فقال لها زوجُها: إن أطعتِني وإلا فإني تاركك. وكان مرقش يكتب، وكان أبوه دفَعه وأخاه حرملة وكانا أحبَّ ولده إليه إلى نصراني من أهل الحيرة، فعلَّمهما الخط، فلما سمع مرقشٌ قول الغفلي للوليدة كتب على مؤخَّرِ الرحل:

يا صاحبيَّ تلبَّثا لا تعجَلا!
إن الرَّواح رهينُ أن لا تفعلا
فلعلَّ لبثَكُما يُقرّب نائيًا
أو يسبُقُ الإسراعُ شيئًا مُقبِلا
يا راكبًا إمَّا عَرَضْت فبلّغا أنس
بن سعدٍ إن لقيتَ وحَرْملا
لله دركُّما ودَرُّ أبيكُما إن
أفلتَ الغفَليُّ حتى يُقتلا
من مُبلِغُ الأقوامِ أن مُرقشًا أضحى

على الأصحاب عِبئًا مُثقلا

وكأنما يَرِدُ السباعُ بشلوه إذ

غاب جَمعُ بني ضُبَيعةَ مَنهَلا

قال: وانطلق الغفليُّ وامرأته حتى رجَعا إلى أهلهما، فقالا: مات المُرقش. ونظر حرملة إلى الرحل وجعله يُقلِّبه، فقرأ الأبيات، فدعاهما وخوَّفهما، وأمرهما أن يَصدُقاه ففعلا، فقتَلهما، وقد كانا وصَفَا له الموضع، فركب في طلب المُرقش حتى أتى المكان، فسأل عن خبره، فعرف أن مرقشًا كان في الكهف ولم يزل فيه حتى إذا هو بغنم تنزُو على الغار الذي هو فيه، وأقبل راعيها إليه.

فلمَّا بُصرَ به قال: من أنت وما شأنك؟ فقال له مرقش: أنا رجلٌ من مراد، فمَن أنت؟ قال: راعي فلان، وإذا هو راعي زوج أسماء، فقال له مرقش: أتستطيع أن تُكلِّم أسماء امرأة صاحبك؟ قال: لا، ولا أدنو منها، ولكن تأتيني جاريتها كل ليلة فأحلُبُ لها عنزًا فآتيها بلبنها. فقال له: خُذ خاتمي هذا، فإذا حلبتَ فألقِه في اللبن فإنها ستَعرفه، وإنك مصيبٌ به خيرًا لم يُصِبه راعٍ قط إن أنت فعلت ذلك.

فأخذ الراعي الخاتم، فلما حُلبَت العنز طَرَح الخاتم في القدح، فانطلقت به الجارية وتركته بين يديها، فلما سكنت رغوته أخذته فشربته، وكذلك كانت تصنع، فقرع الخاتم ثنيتها، فأخذته واستضاءت به بالنار فعرفته، فقالت للجارية: ما هذا؟ فقالت: ما لي به علم. فأرسلتها إلى مولاها وهو في شَرْبٍ بنجران، فأقبل فَزِعًا، فقال لهم: لِمَ دَعوتِني؟ فقالت:

ادع عبدك راعي غنمك. فدعاه، فقالت: سله أين وجد هذا الخاتم؟ فقال: وجدتُه مع رجل في كهفِ جبارٍ، فقال لي اطرحه في اللبن الذي تَشربه أسماء فإنك تصيب به خيرًا، وما أخبرني من هو، ولقد تركتُه في آخرِ رَمق.

فقال زوجها: وما هذا الخاتم؟

قالت: هذا خاتم مُرقش، فأعجل الساعة في طلبه، فركب فرسه وحَمَلها على فرسٍ وسارا حتى طرقاه من ليلته، فاحتمَلاه فمات عند أسماء، وقال قبل أن يموت:

سما نحوي خيالٌ من سُلَيمَى
فأرَّقني وأصحابي هُجُودُ
فَبِتُّ أُديرُ أمري كلَّ حالٍ
وأذكُرُ أهلَهَا وَهمُ بَعيدُ
على أن قد سما طرفي لنارٍ
يُشَبُّ لها بذي الأرطَى وقودُ
حواليها مهًا بيضُ التراقي
وآرامٌ وغزلانٌ رُقودُ
نواعمُ لا تُعالِجَ بؤس عيشٍ
أوانس لا تروح ولاتروُدُ
يرُحنَ معًا بطاء المشي رُودًا
عليهن المجاسِدُ والبُرودُ

سكنَّ ببلدةٍ وسكنتُ أخرى
فقُطِّعت المواثِقُ والعهودُ
فما بالي أفي وَيُخانُ عهدي
وما بالي أُصادُ ولا أصيدُ
ورُبَّ أسيلة الخدَّين بِكْرٍ
مُنَعَّمَةٍ لها فرعٌ وجيدُ
وذو أشَرٍ شتيتُ النبت عذابٌ
نقيُّ اللون برَّاقٌ بَرودُ
لهوتُ بها زمانًا في شبابي
وزارَتها النجائِبُ والقصيدُ
أناسًا كلَّما أخلقت وصلًا
عناني منهم وصلٌ جديدُ

فدُفن في أرض مراد.

الحب يذهب بالحب

أخبرنا أبو بكر العامري، قال: حدَّثني الحسين بن علي بن قدامة مولى بني أمية، عن أبيه، قال: خرجت إلى الشام، فلما كنتُ بالشراة، ودنا الليل إذا قصرٌ، فهويتُ إليه فإذا بين بابي القصرِ امرأةٌ لم أرَ مثلها قط هيئةً وجمالًا، فسلَّمت فردَّت. ثمَّ قالت: من أنت؟ قلت: رجل من بني أمية من أهل الحجاز. فقالت: مرحبًا وحيَّاك الله، انزِل أنت في أهلك. قلت: ومَن أنتِ عافاك الله؟ قالت: امرأةٌ من قومك. فأمرتْ إليَّ بمنزلٍ وقِرًى وبتُّ في خير مبيت، فلما أصبحت أرسلت إليَّ تقول: كيف مبيتُك؟ قلت: خير مبيت، والله ما رأيتُ أكرم منكِ ولا أشرف من فعالكِ. قالت: فإن لي إليك حاجةً، تمضي حتى تأتي ذلك الدير. ديرٌ أشارت إليه متنحٍّ، فإن فيه ابن عمي، وهو زوجي، قد غلبَت عليه نصرانيةٌ في ذلك الدير فهجرني ولَزِمها، فتنظر إليه وإليها وتُخبره عن مبيتك، وعما قلتُ لك. فقلت: أفعل، ونُعمى عين.

فخرجتُ حتى انتهَيتُ إلى الدير، وإذا أنا برجلٍ في فنائه جالس كأجمل ما يكون من الرجال، فسلَّمت فرد وسألني فأخبرته من أنا، وأين بت، وما قالت لي المرأة. فقال: صدقت! أنا رجلٌ من قومك من آل الحارث بن الحكم. ثمَّ صاح: يا قِسط! فخرجت إليه نصرانيةٌ عليها ثياب حِبَرٍ وزنار ما

رأيت مثلها، فقال: هذه قِسطٌ، وتلك أروى، وأنا الذي أقول:

تبدَّلت قِسطًا بعد أروى وحُبّها

كذاك لعمري الحُبُّ يذهب بالحُبِّ

ضحيَّتا الهوى

وجدت بخط أبي عمر بن حَيُّوَيْهِ ونقلته منه، قال: حدَّثنا أبو بكر مُحَمَّد بن خلف بن المَرْزُبان، أخبرنا العتبي عن شبابة بن الوليد العذري، أن فتًى من بني عُذرة يُقال له أبو مالك بن النضر كان عاشِقًا لابنة عمٍّ له عِشقًا شديدًا، فلم يزل على ذلك مدة، ثمَّ إنه فُقد بضع عشرة سنة ولم يُحسَّ له خبر.

قال شبابة بن الوليد: فضلَّتْ إبل لي، فخرجتُ في طلبها، فبينا أنا سيرُ في الرمال إذا بهاتفٍ يهتف بصوتٍ ضعيفٍ وهو يقول:

يا ابن الوليد ألا تحمونَ جاركمُ
وتحفَظون له حقَّ القرابات
عهدي إذا جارُ قومٍ نابَهُ حدثٌ
وقَوه من كل أضرار المُلِمَّاتِ
هذا أبو مالك المُمْسي ببلقعةٍ
مع الضبّاِع وآسادٍ بغابات
طليحُ شوقٍ بنارِ الحب محترقٌ
تعتادُه زفراتٌ إثر لوعاتِ
أما النهارُ فيُضنيه تذكُّره
والليل مُرتقِب للصبح هل ياتي؟

يَهذي بجارية من عُذرة اختلسَت

فؤاده فهو منها في بَليات

فقلت: دلُّني عليه رحمك الله. فقال: نعم اقصد الصوت. فلما قصدت غير بعيد سمعت أنينًا من خباء فأصغيتُ إليه، فإذا قائلٌ يقول:

يا رسيس الهوى أذبتَ فؤادي

وحشوتَ الحشا عذابًا أليمًا

فدنوت منه، فقلت: أبو مالك؟ قال: نعم! قلت: ما بلَغ بك ما أرى؟ قال: حبي سعاد ابنة أبي الهيذم العذري، فشكوتُ يومًا إلى ابن عمٍّ لنا من الحي ما أجد من حبها، فاحتملني إلى هذا الوادي منذ بضع عشرة سنة، ويأتيني كلَّ يوم بخبرها، ويُقوّتني حفظه الله من عنده، فقلت له: إنِّي أصيرُ إلى أهلها فأُخبرهم بما رأيت. قال: أنت وذاك.

فانصرفتُ وصرتُ إلى أهل الجارية، فخبَّرتهم بحال الفتى وما رأيت منه، وحدَّثتهم حديثه، فرقُّوا له فزوَّجوه بحضرتي، ورجعتُ إليه عامدًا لأُفرِّج عنه لما رأيتُ منه، فلما أخبرته الخبر حدَّد النظر إليَّ، ثمَّ تأوَّه تأوُّهًا شديدًا بلغ من قلبي، ثمَّ أنشأ يقول:

الآن إذ حشرجَتْ نفسي وحاصرَها

فِراقُ دُنيا وناداها مُناديها

ثمَّ زَفَرَ زفرةً فمات، فدفنتُه في موضعه ثمَّ انصرفت فأعلمتهم الخبر، فأقامت الجارية ثلاثًا لا تطعمُ طعامًا ثمَّ ماتت.

ليلى الأخيلية والحجاج

أخبرنا أبو جعفر بن مسلمة في ما أذن لنا في روايته أن أبا القاسم إسماعيل بن سعيد بن سُوَيْد أخبرهم إجازةً، قال: حدَّثنا أحمد بن عبيد عن أبي الحسن المدائني عمَّن حدَّثه عن مولى لعنبسة أن سعيد بن العاص، قال: كنتُ أدخل مع عنبسة بن سعيد إذا دخل على الحجاج، فدخل يومًا فدخلت إليهما، وليس عند الحجاج غير عنبسة، فقعدتُ فجيء الحجاج بطبق فيه رُطَبٌ فأخذ الخادم منه شيئًا فجاءني به، ثمَّ جيء بطبق حتى كَثُرت الأطباق، وجعل لا يؤتون بشيءٍ إلا جاءني منه بشيءٍ، حتى ظننت أن ما بين يدي أكثر مما عندهم.

ثمَّ جاء حاجب فقال: امرأةٌ بالباب. فقال له الحجاج: أدخلها! فدخلت، فلما رآها الحجاج طأطأ رأسه حتى ظننتُ أن ذقنه قد أصاب الأرض، فجاءت حتى قعدت بين يديه، فنظرت إليها فإذا هي امرأةٌ قد أسنَّت، حسنة الخلق، ومعها جاريتان لها، وإذا هي ليلى الأخيلية، فسألها الحجاج عن نسبها فانتسبت له، فقال لها: يا ليلى ما أتى بك؟ فقالت: إخلافُ النجوم، وقلَّة الغيوم، وكَلَبُ البرد، وشدة الجهد، وكنتَ لنا بعد الله الرفد.

فقال لها: صِفي لنا الفِجاج. فقالت: الفجاج مُغبَرَّةٌ، والأرض مُقشَعِرَّةٌ، والمنزل مُعتلٌّ، وذو العيال مُختل، والهالك المُقلُّ، والناس مُسنِتون،

رحمةَ الله يرجون. وأصابتنا سنون مجحفة مبطلة لم تدع لنا هيعًا ولا ريعًا، ولا عافِطة ولا نافِطة، أذهبَتِ الأموال، وفرَّقت الرجال، وأهلكَتِ العيال. ثمَّ قالت: إنِّي قد قلتُ في الأمير قولًا! قال: هاتي. فأنشأت تقول:

أحجَّاجُ لا يُفلَل سِلاحُك إنما الـ

ـمنايا بكفِّ الله حيثُ تراها

أحجَّاجُ لا تُعطِ العصاة مُناهُمُ

ولا الله يُعطي للعصاةِ مُناها

إذا هبَط الحجَّاجُ أرضًا مريضةً

تتبع أقصى دائها فشفاها

شفاها من الداء العُضالِ الذي

بها غُلامٌ إذا هزَّ القناة سقاها

سقاها فروَّاها بشُرب سجاله

دماءُ رجالٍ حيث قال حماها

إذا سَمِعَ الحجاجُ رِزَّ كتيبةٍ

أعدَّ لها قبل النزول قِراها

أعدَّ لها مسمومةً فارسيَّةً

بأيدي رجال يَحلُبُون صرَاها

فما وَلَدَ الأبكارُ والعون

مثلَه بنجدٍ ولا أرضٍ يجفُّ ثراها

قال: فلما قالت هذا قال الحجاج: قاتَلها الله! ما أصاب صفتي شاعرٌ

مذ دخلتُ العراق غيرها. ثمَّ التفَت إلى عنبسة بن سعيد فقال: والله إِنِّي لأعدُّ للأمر عسى أن لا يكون أبدًا. ثمَّ التفَتَ إليها فقال: حسبُك. قالت: إِنِّي قد قلت أكثر من هذا. قال: حسبك، ويحك حسبك. ثمَّ قال: يا غلام، اذهب إلى فلان فقل له اقطع لسانها. قال: فأمر بإحضار الحجَّام، فالتفتَت إليه فقالت: ثكلتْكَ أمُّك! أما سمعتَ ما قال: إنما أمرك أن تقطع لساني بالصِّلة. فبعث إليه يَستثبته، فاستشاط الحجاجُ غضبًا وهمَّ بقطع لسانه، وقال: اردُدها. فلما دخلت عليه قالت: كاد وأمانة الله يَقطعُ مقولي. ثمَّ أنشأت تقول:

حجَّاجُ! أنت الذي ما فوقه أحدٌ
إلا الخليفة والمستغفَرُ الصَّمدُ
حجَّاج! أنت شهاب الحرب إذ
لَقحت وأنت للناس في جنح الدُّجى تقِدُ

ثمَّ أقبل الحجَّاج على جلسائه فقال: أتدرون من هذه؟ قالوا: لا والله أيها الأمير، إلا أنا لم نرَ امرأةً قطُّ أفصح لسانًا ولا أحسن مُحاوَرةً ولا أملح وجهًا ولا أرصن شِعرًا منها. فقال: هذه ليلى الأخيلية التي مات توبة الخفاجي من حبِّها. ثمَّ التفت إليها فقال: أنشدينا يا ليلى بعض ما قال فيك توبة. فقالت: نعم أيها الأمير، هو الذي يقول:

وهل تبكيَنْ ليلى إذا ما بكَيتُها
وقام على قبري النساء النوائحُ
كما لو أصابَ الموتُ ليلى بكيتُها
وجاد لها دمعٌ من العين سافحُ

وأُغْبطُ من ليلى بما لا أناله بلى!

كُلُّ ما قرَّت به العين صالحُ

ولو أن ليلى الأخيلية سلَّمت

عليَّ ودوني تُربَةٌ وصفائحُ

لسلَّمتُ تسليم البشاشة أو زَقا إليها

صَدًى من جانب القبر صائحُ

فقال لها زيدينا يا ليلى من شعره. فقالت: هو الذي يقول:

حمامةَ بطنِ الواديَين ترنَّمي

سقاكِ من الغُرِّ الغوادي مطيرُها

أبيني لنا لا زال ريشُكِ ناعمًا

ولا زلت في خضراءَ غضٍّ نضيرها

وأُشرِف بالقَوزِ اليفاعِ لعلني

أرى نارَ ليلى أو يراني بصيرُها

وكنتُ إذا ما جئت ليلي تبرقعتْ

فقد رابني منها الغداة سُفورُها

يقول رجالٌ: لا يَضيرُك نأيُها! بلى!

كلُّ ما شفَّ النفوس يضيرُها

بلى! قد يَضيرُ العين أن تُكثِر البُكا

ويُمْنَعَ منها نومُها وسُرورُها

وقد زعمَتْ ليلى بأنِيَ فاجِرٌ

لنفسي تُقاها أو عليها فُجورها

فقال لها الحجاج: يا ليلى، ما الذي رابه من سفورِك؟ فقالت: أيها الأمير، كان يُلِم بي كثيرًا، فأرسل إليَّ يومًا أني آتيكِ، وفطنَ الحيُّ، فأرصدوا له، فلما أتاني سفرتُ فعلم أن ذلك لشرٍّ، فلم يَزد على التسليم والرجوع. فقال: لله درُّك، فهل رأيت منه شيئًا تكرهينه؟ فقالت: لا والذي أسأله أن يُصلحك غير أنه قال لي مرة قولًا ظننتُ أنه قد خضع لبعض الأمر، فقلت له:

وذي حاجةٍ قُلنا له لا تَبُح بها فليس إليها ما حييتَ سبيلُ

لنا صاحبٌ لا يَنبغي أن نخونه وأنت لأخرى فارِغٌ وحليلُ

فلا والذي أسأله أن يُصلحك ما رأيتُ منه شيئًا حتى فرَّق الموت بيني وبينه. قال: ثمَّ ماذا؟ قالت: لم يلبث أن خرج في غزاة له فأوصى ابن عمه: إذا أتيتَ الحاضرة من بني عُبادة، فنادِ بأعلى صوتك:

عفا الله عنها! هل أبيتنَّ ليلةً

من الدهر لا يسري إليَّ خيالُها

فخرجت وأنا أقول:

وعنه عفا ربي وأحسن حاله

فعزَّ علينا حاجةٌ لا ينالُها

قال: ثمَّ ماذا؟ قالت: لم يَلبث أن مات، فأتاني نعيُّه. قال: فأنشدينا بعض مراثيك. فأنشدت:

لتبكِ عليه من خفاجة نُسوةٌ

فلما فرغت من القصيدة قال مُحصنٌ الفقعسي، وكان من جلساء الحجاج: من هذا الذي تقول فيه؟ فوالله إنِّي لأظنُّها كاذبة. فنظرت إليه، ثمَّ قالت: أيها الأمير! إن هذا القائل لو رأى توبةَ لسرَّه أن لا يكون في داره عذراء إلا وهي حاملٌ منه. فقال الحجاج: هذا وأبيك الجواب، وقد كنتُ عنه غنيًّا.

ثمَّ قال لها: سَلي يا ليلى تُعطَي. قالت: أعط فمثلُك أعطى فأجزل. قال: لك عشرون. قالت: زِد فمثلك زاد فأجمل. قال: لك أربعون. قالت: زِد فمثلُك زادَ فأفضل. قال: لك ستون. قالت: زِد فمثلك زاد فأكمل. قال: لك ثمانون. قالت: زِد فمثلُك زاد فأتمَّ. قال: لك مائةٌ، واعلمي يا ليلى أنها غَنَمٌ. قالت: معاذ الله أيها الأمير، أنت أجود جُودًا وأمجدُ مجدًا وأورى زندًا من أن تجعلها غَنَمًا. قال: فما هي ويحك يا ليلى؟ قالت: مائة ناقة يُدعى بها. فأمر بها ثمَّ قال: ألك حاجةٌ بعدها؟ قالت: تدفع إليَّ النابغة الجعدي في قَرَن. قال: قد فعلت.

وقد كانت تهجوه ويهجوها، فبلغ النابغة ذلك، فخرج هاربًا عائذًا بعبد الملك، فاتَّبعته إلى الشام، فهرب إلى قُتيبة بن مُسلم بخراسان، فأتبعَته على البريد بكتاب الحجاج إلى قُتيبة، فمات بقومَس، ويُقال بحُلوان.

عاشقٌ يقتله الصدُّ

حدَّثني مُحَّد بن عبد الله الأندلسي، وكتبه لي بخطِّه، حدَّثني أبو عبد الله مُحَّد بن الحسن المذحجي الطبيب الأديب، قال: كنتُ أختلفُ في النحو إلى مُحَّد بن خطَّاب النحوي في جماعةٍ، وكان معنا عنده أبو الحسن أسلم بن أحمد بن سعيد ابن قاضي قضاة الأندلس أسلم بن عبد العزيز صاحب المزني والربيع. قال مُحَّد بن الحسن: وكان أجمل من رأته العيون. وكان معَنا عند مُحَّد بن خطاب أحمد بن كُليب، وكان من أهل الأدب والشعر، فاشتدَّ كلفه بأسلم وفارق صبره وصرفَ فيه القول مُتستِّرًا بذلك إلى أن فشَت أشعارُه فيه، وجرت على الأسنة وتُنوشِدت في المحافل.

فلعهدي بعرسٍ في بعض الشوارع بقرطبة، والكوري الزامر قاعدٌ في وسط المحفل وفي رأسه قلنسوة وشيء، وعليه ثوب خزٍّ عُبَيدي، وفرسه بالحِليةِ المُحُلَّاة يمسكه غلامه، وكان يزمر لأمير المؤمنين الناصر، وهو يزمر في البوق بقول أحمد بن كليب في أسلم، وهو:

أسلمني في الهوى أسلم هذا الرشا

غزالٌ له مُقْلةٌ يُصيبُ بها من يَشا

وشى بينَنا حاسِدٌ سيُسْألُ عما وشى

ولو شاء أن يرتشي على الوصل رُوحي ارتشى

ومُغنٍ مُحسنٌ يُسايرُه فيها، فلما بلغ هذا المبلغ انقطع أسلمُ عن جميع مجالس الطلب، ولزم بيته والجلوس على بابه.

وكان أحمد بن كُليب لا شُغل له إلا المرور على باب أسلم سائرًا ومُقبِلًا نهاره كله، فامتنع أسلم عن الجلوس على باب داره نهارًا، فإذا صلَّى المغرب واختلط الظلام خرج مُستروِحًا وجلس على باب داره، فعيل صبرُ أحمد بن كُلَيب فتحيَّل في بعض الليالي ولبس جُبة صوفة من جِباب أهل البادية واعتمَّ بمثل عمائمهم، وأخذ بإحدى يديه دَجاجًا وبالأخرى قفصًا فيه بيضٌ، وتحيَّن جلوس أسلم عند اختلاطِ الظلام على بابه.

فتقدَّم إليه وقبَّل يده وقال: يا مولاي! تأمرُ مَن يقبِضُ هذا؟ فقال له أسلم: ومن أنت؟ فقال: أجيرُك في الضيعة الفلانية. وقد كان يعرف أسماء ضياعِه والعاملين فيها، فأمر أسلم غِلمانه بقبض ذلك منه على عادتهم في قبول هدايا العاملين في الضياع عند ورودِهم منها. ثم جعل يسأله عن الضيعة، فلما جاوبه أنكر الكلام، فتأمَّله فعرَفه، فقال له: يا أخي! وإلى هنا بلغت بنفسك، وإلى ها هُنا تتبعُني؟ أما كفاك انقطاعي عن مجالس الطلب، وعن الخروج جُملةً وعن القعود على بابي نهارًا، حتى قطعتَ عليَّ جميع ما لي فيه راحةٌ، فقد صرتُ من سجنك في حيرة، والله لا فارقتُ هذه الليلة قعر منزلي ولا جلستُ بعدها على بابي لا ليلًا ولا نهارًا. ثمَّ قام، فانصرف أحمد بن كليب حزينًا كئيبًا.

قال مُحَمَّد بن الحسن: واتَّصل ذلك بنا، فقلنا لأحمد بن كليب: قد خسرتَ دجاجك وبيضك. فقال: هاتِ كل ليلة قبلة يده وأخسر أضعاف ذلك. قال: فلما يئس من رؤيته البتة نهكتْه العلة، وأضجعه المرض.

قال مُحَمَّد بن الحسن: فأخبرني شيخُنا أبو عبد الله مُحَمَّد بن خطاب، قال: فعُدته فوجدته بأسوأ حال، فقلت له: ولِمَ لا تتداوَى؟ فقال: دوائي معروفٌ، وأمَّا الأطباء فلا حيلة لهم فيَّ البتة. فقلت له: وما دواؤك؟ قال: نظرة من أسلم، ولو سعَيتَ في أن يزورني لأعظم الله أجرك بذلك، وكان هو والله أيضًا يؤجرُ.

قال: فرحمته وتقطَّعت نفسي له، فنهضتُ إلى أسلم فاستأذنت عليه، فأذن لي وتلقَّاني بما أُحب. فقلت له: لي حاجةٌ. قال: وما هي؟ قلت: قد علمتَ ما جمعك مع أحمد بن كليب من ذِمام الطلب عندي. فقال: نعم! ولكن تعلم أنه برَّح بي وشهَرَ اسمي وآذاني. فقلت: كل ذلك يُغتفرُ في مثل الحال التي هو فيها، فتفضَّل بعيادته. فقال لي: والله ما أقدر على ذلك فلا تُكلِّفني هذا. فقلت له: لا بدَّ، فليس عليك في ذلك شيء، وإنما هي عيادةُ مريض.

قال: ولم أزل به حتى أجاب. فقلت: فقُم الآن! فقال لي: لستُ والله أفعل، ولكن غدًا. فقلت له: ولا خُلفَ؟ قال: نعم.

قال: فانصرفتُ إلى أحمد بن كليب وأخبرته بوعده بعد تأبِّيه، فسُرَّ بذلك وارتاحت نفسه. قال: فلما كان من الغد بكَّرت إلى أسلم وقلت له: الوعد. فوجم، وقال: والله لقد تَحملُني على خطةٍ صعبةٍ عليَّ، وما أدري كيف أُطيقُ ذلك. قال: فقلت له: لا بدَّ أن تفي بوعدك لي.

قال: فأخذ رداءه ونهض معي راجِلًا، فلما أتينا منزل أحمد بن كليب، وكان يَسكن في آخر دربٍ طويلٍ، وتوسَّط الزقاق وَقَفَ واحمرَّ وخجل،

وقال لي: يا سيِّدي، الساعة والله أموت وما أقدر أن أنقُلَ قدمي، ولا أستطيع أن أعرِض هذا على نفسي. فقلت له: لا تفعل بعد أن بلغت المنزل وتنصرف؟ فقال: لا سبيل والله إلى ذلك البتَّة.

ورجع هاربًا، فاتَّبعته فأخذت بردائه، فتمادى وخرق الرداء، وبقيَتْ قطعةٌ منه في يدي لشدة إمساكي له، ومضى ولم أدركه، فرجعت ودخلت على أحمد بن كليب.

وقد كان غلامه دخل عليه إذ رآنا من أول الزقاق مُبشِّرًا، فلما رآني دونه تغيَّر وجهه وقال: وأين أبو الحسن؟ فأخبرته بالقصة، فاستحالَ من وقته، واختلط، وجعل يقول ويتكلم بكلامٍ لا يُعقَلُ منه أكثرُ من الترجُّع، فاستبشعتُ الحال وجعلت أترجَّعُ وقُمت، فثابَ إليه وجهه وقال: أبا عبد الله! قلت: نعم! قال: اسمع مني، واحفظ عني. ثمَّ أنشأ يقول:

أسلمُ يا راحةَ العليل

رِفقًا على الهائمِ النحيل

قال: فقلتُ اتَّقِ الله، ما هذه الكبيرة؟ فقال لي: قد كان. فخرجتُ عنه، فوالله ما توسَّطت الزقاق حتى سمعتُ الصراخ عليه وقد فارق الدنيا.

معاوية والفتى العذري

أخبرنا أبو مُحَمَّد الحسن بن علي قراءةً عليه، أخبرنا أبو عمر مُحَمَّد بن العباس بن حَيُّوَيْهِ، حدَّثنا أبو مخنف، عن هشام بن عروة، قال: أذِن معاويةُ بن أبي سُفيان للناس يومًا، فكان في من دخل عليه فتًى من بني عُذرة، فلما أخذ الناس مجالسهم قام الفتى العُذري بين السِّماطين، ثمَّ أنشأ يقول:

مُعاويَ! يا ذا الحلم والفضل والعقل
وذا البرّ والإحسان والجودِ والبَذلِ
أتيتُك لمَّا ضاق في الأرض مسكني
وأُنكِرتُ مما قد أُصيبُ به عقلي
ففرِّجْ، كَلاكَ اللهُ، عنّي فإنني
لقيتُ الذي لم يَلقهُ أحدٌ قبلي
وخُذ لي، هداك الله، حقِّي من الذي
رَماني بسهمٍ كان أهونه قتلي
وكنتُ أرجّي عدله إذ أتيتُه
فأكثر ترْدادي مع الحبسِ والكبلِ
فطلَّقتُها من جهدِ ما قد أصابني

فهذا أمير المؤمنين من العَدل؟

فقال له معاوية: ادنُ! بارك الله عليك، ما خطْبُك؟ فقال: أطال الله بقاء أمير المؤمنين! إنني رجل من بني عُذرة تزوجت ابنة عمٍّ لي. وكانت لي صِرْمةٌ من إبل وشُوَيهات، فأنفقتُ ذلك عليها، فلما أصابتْني نائبةُ الزمانِ وحادثاتُ الدهر رغِب عني أبوها، فكرهت مخالفة أبيها، فأتيتُ عاملَك ابن أمّ الحكَم، فذكرت ذلك له، وبلَغه جمالها، فأعطى أباها عشرة آلاف درهم وتزوجها، وأخذني فحبَسني وضيَّق عليَّ. فلما أصابني مسُّ الحديد وألمُ العذاب طلَّقتُها، وقد أتيتُك يا أمير المؤمنين وأنت غيَّاث المحروب وسند المسلوب، فهل من فرج؟ ثمَّ بكى. وقال في بكائه:

في القلبِ منيَ نارُ والنارُ فيها شَنارُ

وفي فؤاديَ جمرٌ والجمرُ فيه شرارُ

والجسمُ مني نحيلٌ واللونُ فيه اصفرارُ

والعين تَبكي بشجوٍ فدمعها مِدرارُ

والحُبُّ داءٌ عسيرٌ فيه الطبيبُ يَحَارُ

حملتُ منه عظيمًا فما عليه اصطبارُ

فليس ليلي ليلًا ولا نهاري نَهارُ

فرقَّ له معاوية، وكتب له إلى ابن أمّ الحكم كتابًا غليظًا، وكتب في آخره:

ركبتَ أمرًا عظيمًا لستُ أعْرِفه

أستغفر الله من جورِ امرئٍ زانِ

قد كنتَ تُشبه صوفيًّا له كُتُبٌ

من الفرائضِ أو آياتُ فُرقانِ

حتى أتاني الفتى العُذريُّ منتحِبًا

يشكو إليَّ بحقٍّ غيرِ بُهتانِ

أُعطِي الإلهَ عهودًا لا أَخِيسُ بها

أو لا فأبرأ من دِين وإيمان

إن أنتَ راجعتَني في ما كتبتُ به

لأجعلنَّك لحمًا بين عُقبانِ

طلِّق سُعاد وفارِقْها بمجتمَعٍ أشهِدْ

على ذاك نصرًا وابن طِيبانِ

فما سمعتُ كما بُلِّغتُ من عَجَبٍ

ولا فعالُكَ حقًّا فعلَ إنسانِ

فلما ورد كتاب معاوية على ابن أمِّ الحكم تنفَّس الصُّعداء وقال: ودِدت أن أمير المؤمنين خلَّى بيني وبينها سنة، ثمَّ عرَضني على السيف. وجعل يؤامر نفسه في طلاقها ولا يقدر، فلما أزعجه الوَفدُ طلَّقها، ثمَّ قال: اخرُجي يا سُعادُ. فخرجت شَكِلَةً غَنِجَة، ذات هيبة وجمال. فلما رآها الوفد قالوا: ما تَصلح هذه إلا لأمير المؤمنين لا لأعرابي. وكتبَ جواب كتابه:

لا تحنثنَّ أمير المؤمنين، وَفِي بعهدك اليوم في رفقٍ وإحسانِ

وما ركبتُ حَرَامًا حين أعجبني فكيف سُمِّيتُ باسم الخائن الزاني!

وسوف تأتيك شمسٌ لا خفاء بها أبهى البرية من إنسٍ ومن جانِ

حوراء يَقصُرُ عنها الوصفُ إن وُصِفتْ أقول ذلك في سرٍّ وإعلانِ

فلما ورَد على معاوية الكتاب، قال: إن كانت أُعطيت حُسنَ النعمة مع هذه الصفة فهي أكملُ البريَّة. فاستنطقها، فإذا هي أحسنُ الناس كلامًا وأكملُهم شكلًا ودَلًّا، فقال: يا أعرابي! هل مِن سلوٍّ عنها بأفضلِ الرغبة؟ قال: نعم، إذا فرَّقت بين رأسي وجسدي. ثمَّ أنشأ يقول:

لا تجعلَنِّيَ والأمثالُ تُضربُ بي كالمُستغيثِ من الرَّمْضاء بالنار

ارْدُد سُعاد على حرَّانَ مُكتَئِبٍ يُمسي ويُصبِحُ في همٍّ وتذكار

قد شفَّه قلقٌ ما مثله قلقُ وأُشعِرَ القلبُ منه أيَّ إشعارِ

والله والله لا أنسى محبَّتها حتى أُغيَّب في رمسٍ وأحجارِ

كيف السُّلُوُّ وقد هام الفؤاد بها وأصبح القلب عنها غير صبَّارِ

قال: فغضب معاوية غضبًا شديدًا، ثمَّ قال لها: اختاري، إن شئتِ أنا، وإن شئت ابن أمّ الحكمِ، وإن شئتِ الأعرابي. فأنشأت سعاد تقول:

هذا وإن أصبح في أطمارِ

وكان في نقصٍ من اليسار

أعزُّ عندي من أبي وجاري

وصاحبِ الدِّرهم والدينارِ

أخشى إذا غدرتُ حرَّ النارِ

فقال معاوية: خُذها، لا بارك الله لك فيها. فأنشأ الأعرابي يقول:

خلُّوا عن الطريق للأعرابي

إن لم تَرِقُّوا، ويحكُم، لما بي

قال: فضحك معاوية وأمر له بعشرة آلاف درهم، وناقةٍ ووطاءٍ، وأمَر بها، فأُدخلت بعض قصوره حتى انقضت عدَّتها من ابن أم الحكم ثمَّ أمر بدفعها إلى الأعرابي.

ليلى ومجنونها

أخبرنا أبو مُحَمَّد الحسن بن علي، أخبرنا أبو عمر بن حَيُّوَيْهِ، حدَّثني رجلٌ من بني عامر يُقال له رياح بن حبيب، قال: كان في بني عامر من بني الحريش جاريةٌ من أجمل النساء، وأحسنهنَّ، لها عقل وأدب، يُقال لها ليلى ابنة مهدي بن رَبيعة بن الحُرَيش، فبلغ المجنون خبرُها وما هي عليه من الجمال والعقل. وكان صبًّا بمحادثة النساء، فعمد إلى أحسن ثيابه، فلبسها وتهيَّأ بأحسن هيئة، وركب ناقة له كريمة وأتاها. فلما جلس إليها وتحدَّث بين يديها أعجبته ووقعَت بقلبه. فظل يومه يُحدِّثُها وتُحدِّثه حتى أمسى، فانصرف. فبات بأطول ليلة من الليلة الأولى، وجهد أن يُغمِضَ فلم يقدر على ذلك، فأنشأ يقول:

نهاري نهارُ الناس، حتى إذا بدا ليَ

الليل هزَّتني إليك المضاجعُ

أُقضِّي نهاري بالحديث وبالمُنى

ويجمعُني والهمَّ بالليل جامعُ

وأدامَ زيارتَها، وترك إتيان كل من كان يأتيه فيتحدَّثُ إليه غيرها، وكان يأتيها كل يومٍ، فلا يزال عندها نهارَه أجمع حتى إذا أمسى انصرف.

وإنه خرج ذات يومٍ يُريدُ زيارتها، فلما قرُب من منزلها لقيتْه جاريةٌ عسراء، فتطيَّر من لقائها فأنشأ يقول:

وكيف تُرَجِّي وصلَ ليلى، وقد جرى

يجدُّ القوَى من ليلَ أعسرُ حاسرُ

صديعُ العصا جدبُ الزمانِ إذا انتحى

لوصلِ امرئٍ لم يُقضَ منه الأوَاطِرُ

ثمَّ صار إليها من غدٍ، فلم يزل عندها، فلما رأت ليلى ذلك منه وقع في قلبها مثل الذي وقع لها في قلبه، فجاء يومًا كما كان يجيء، فأقبل يُحدِّثُها، وجعلت هي تُعرِضُ عنه بوجهها وتُقبِلُ على غيره، كل ذلك تريدُ أن تَمتحنه، وتعلم ما لها في قلبه، فلما رأى ذلك منه اشتدَّ عليه، وجزع حتى عُرِفَ ذلك فيه، فلما خافت عليه أقبلت كالمشيرة إليه، فقالت:

كِلانا مُظهِرٌ للناسِ بُغضًا

وكلٌّ عند صاحبه مكينُ

فسُرِّيَ عنه وعلم ما في قلبها، وقالت له: إنما أردت أن أمتحنَك، والذي لك عندي أكثر من الذي لي عندك، وأنا مُعطيةٌ الله عهدًا إن أنا جالستُ بعد يومي هذا رجلًا سواك حتى أذوق الموت، إلا أن أُكرَه على ذاك. قال: فانصرف في عشيته وهو أسرُّ الناس بما سمع منها، فأنشأ يقول:

أظنُّ هواها تاركي بمَضَلَّةٍ من

الأرضِ لا مالٌ لديَّ ولا أهلُ

ولا أحدٌ أُفضي إليه وصيَّتي

ولا وارثٌ إلا المطيةُ والرحلُ

محا حُبُّها حُبَّ الأُلى كُنَّ قبلَها

وحلَّت مكانًا لم يكن حُلَّ من قبلُ

يسائلني عن علتي وهو علتي

أخبرنا أبو مُحَمَّد أحمد بن علي بن الحسن بن الحسين بن أبي عثمان فيما أجاز لنا، قال: علقتْ فتاةٌ من العرب فتًى من قومها، وكان الفتى عاقِلًا فاضِلًا، فجعلَت تُكثر التردد إليه تسأله عن أمور النساء، وما في قلبها إلا النظر إليه واستماع كلامه، فلما طال ذلك عليها مَرضت وتغيَّرت، واحتالت في أن خلا لها وجهُه وقتًا، فتعرَّضت له ببعض الأمر فصرفها ودفعها عنه، فتزايَد بها المرض حتى سقطت على الفراش، فقالت له أمه: إن فلانة قد مرضت ولها علينا حق. قال: فعُوديها وقولي لها: يقول لك ما خبرُك؟ فصارت إليها أمه، فقالت لها: ما بك؟ قالت: وجعٌ في فؤادي هو أصل عِلَّتي. قالت: فإن ابني يقول لك ما علَّتُك؟ فتنفَّست الصُّعَدَاء وقالت:

يُسائلني عن علتي وهو علتي

عجيبٌ من الأنباء جاء به الخَبَر

فانصرفت أمه إليه فأخبرته وقالت له: قد كنتُ أحبُّ أن نسألها المصير إلينا لنقضي حقَّها ونَلي خدمتها. قال: فسليها ذلك. قالت: قد أردتُ أن أفعله ولكن أحببتُ أن يكون عن رأيك. فمضت إليها، فذكرَت

لها ذلك عنه، فبكت وقَبِلت، ثمَّ أنشأت تقول:

يُباعدني عن قربِه ولقائه فلما

أذاب الجسم مني تعطَّفا

فلستُ بآتٍ موضعًا فيه قاتلي كفاني سقامًا أن أموت كذا كفى

فألحَّت عليها فأبت، وترامت العلَّة بها، وتزايد المرض حتى ماتت.

يزيد بن معاوية وعمارة المغنية

أخبرنا أبو علي مُحَمَّد بن الحسين الجازري، إن لم يكن سماعًا فإجازةً، حدَّثنا المعافى بن زكريا الجريري، عن أبي بكر العجلي، عن جماعة من مشايخ قريش من أهل المدينة، قالوا: كانت عند عبد الله بن جعفر جارية مُغنِّية يُقال لها عُمارة، وكان يجدُ بها وجدًا شديدًا، وكان لها منه مكانٌ لم يكن لأحد من جواريه، فلمَّا وفد عبد الله بن جعفر على معاوية خرج بها معه فزاره يَزيد ذات يوم، فأخرَجها إليه.

فلما نظر إليها وسمع غناءها وقعت في نفسه، فأخذه عليها ما لا يملكه، وجعل لا يمنعه من أن يبوح بما يَجِدُ بها إلا مكانُ أبيه مع يأسه من الظفر بها، فلم يزل يُكاتمُ الناس أمرها إلى أن مات معاوية، وأفضى الأمر إليه، فاستشار بعض من قَدِمَ عليه من أهل المدينة وعامة من يثق به في أمرها، وكيف الحيلة فيها، فقيل له: إن أمر عبد الله بن جعفر لا يُرام، ومنزلته من الخاصة والعامة ومنك ما قد علمت، وأنت لا تستجيزُ إكراهه، وهو لا يبيعها بشيءٍ أبدًا، وليس يُغني في هذا إلا الحيلة.

فقال: انظُروا لي رَجُلًا عراقيًّا له أدَبٌ وظَرْفٌ ومعرفةٌ. فطلبوه فأتوه به، فلما دخل رأى بيانًا وحلاوةً وفهمًا، فقال يزيد: إنِّي دعوتك لأمرٍ إن ظفرتَ به فهو حظ آخر الدهر ويدٌ أكافئك عليها إن شاء الله. ثمَّ أخبره بأمره، فقال له: عبد الله بن جعفر ليس يُرام ما في قلبه إلا بالخديعة، ولن

يقدر أحدٌ على ما سألت، فأرجو أن أكونَه، والقوة بالله، فأعني بالمال.
قال: خذ ما أحببت.

فأخذ من طُرَفِ الشام وثياب مصر، واشترى متاعًا للتجارة من رقيقٍ ودواب وغير ذلك، ثمَّ شخص إلى المدينة، فأناخ بعَرصَةِ عبد الله بن جعفر، واكترى منزلًا إلى جانبه، ثمَّ توسَّل إليه وقال: إنِّي رجلٌ من أهل العرَاق قدمتُ بتجارةٍ وأحببتُ أن أكون في عز جوارِك وكنفِك إلى أن أبيعَ ما جئتُ به، فبعث عبد الله بن جعفر إلى قهرَمانه أن أكرِم الرجل، ووَسِّع عليه في نزوله.

فلما اطمأنَّ العراقي سلَّمَ عليه أيَّامًا وعرفه نفسه، وهيَّأ له بغلةً فارِهَةً، وثيابًا من ثياب العراق وألطافًا، فبعث بها إليها وكتب معها: يا سيِّدي! إنِّي رجلٌ تاجر، ونعمة الله عليَّ سابغَةٌ، وقد بعثتُ إليك بشيءٍ من تُحَفٍ وكذا من الثيابِ والعِطرِ، وبعثتُ ببغلةٍ خفيفة العنان وطيئة الظهر، فاتَّخذها لرجلك، فأنا أسألك بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وآله، ألا قبلتَ هديتي ولم تُوحشني بردِّها، إنِّي أدين الله تعالى بحُبِّك وحُبِّ أهل بيته، وإن أعظم أملي في سَفرَتي هذه أن أستفيد الأنس بك والتحرُّم بمواصلتك.

فأمر عبد الله بقبضِ هديته وخرج إلى الصلاة، فلما رجع مرَّ بالعراقي في منزله، فقام إليه وقبَّل يده، واستكثر منه، فرأى أدبًا وظرْفًا وفصاحةً، فأُعجِبَ به وسُرَّ بنزُوله عليه، فجعل العراقي في كل يومٍ يبعثُ إلى عبد الله بُلطَفٍ تُطرِفُه، فقال عبد الله: جزى اللهُ ضيفَنا هذا خيرًا، فقد ملأَنا شكرًا، وما نقدرُ على مكافأته.

فإنه لكذلك إلى أن دعاه عبد الله، ودعا بعُمارَةَ في جواريه، فلما طاب

لهما المجلس وسمع غناء عمارة تعجَّب وجعل يَزيدُ في عجبه، فلما رأى ذلك عبد الله سُرَّ به إلى أن قال له: هل رأيتَ مثل عُمارَة! قال: لا والله يا سيِّدي، ما رأيتُ مثلها، وما تصلُحُ إلا لك، وما ظننتُ أن يكونَ في الدنيا مثل هذه الجارية حسن وجه وحسنُ عمل. قال: فكم تُساوي عندك؟ قال: ما لها ثمنٌ إلا الخلافة. قال: تقول هذا لتُزيّن لي رأيًا فيها وتَجتلب سُروري. قال له: يا سيِّدي، والله إنِّي لأُحب سرورك، وما قلت لك إلا الجد، وبعدُ؛ فإني تاجرٌ أجمع الدرهم إلى الدرهم طلبًا للربح، ولو أعطيتَها بعشرة آلاف دينار لأخذتُها. فقال له عبد الله: عشرة آلاف؟ قال: نعم! ولم يكن في ذلك الزمان جاريةٌ تُعرفُ بهذا الثمن. فقال له عبد الله: أنا أبيعُكها بعشرة آلاف. قال: قد أخذتُها. قال: هي لك. قال: قد وجب البيع. وانصرف العراقي.

فلما أصبح عبد الله لم يَشعر إلا بالمال قد جيء به، فقيل لعبد الله: قد بعث العراقي بعشرة آلاف دينار. وقال: هذا ثمن عُمارة، فردَّها، وكتب إليه: إنما كنتُ أمزح معك، ومما أعلمك أن مثلي لا يبيع مثلها. فقال له: جُعلت فداءك! إن الجد والهزل في البيع سواء.

فقال له عبد الله: ويحك! ما أعلم جاريةً تُساوي ما بذلت، ولو كنتُ بائعها من أحد لآثرتُك، ولكني كنت مازِحًا، وما أبيعها بملك الدنيا لحُرمتها بي وموضعها من قلبي. فقال العرابي: إن كنتَ مازحًا فإني كنتُ جادًّا، وما اطَّلَعتُ على ما في نفسك، وقد ملكت الجارية وبعثت إليك بثمنها، وليست تحلُّ لك، وما لي من أخذها من بُدٍّ. فمانَعه إيَّاها، فقال له: ليست لي بيِّنة، ولكن أستحلِفُك عند قبر رسول الله صلى الله عليه وآله ومنبره.

فلما رأى عبد الله الجد قال: بئس الضيفُ أنت، ما طرَقنا طارِقٌ ولا

نزل بنا نازِلٌ أعظم بليَّة منك، أتُحلِّفني فيقول الناس: اضطهد عبد الله ضيفَه وقهره وألجأه إلى أن استحلفَه؟ أما والله ليعلمنَّ الله عز وجل أني سأُبليه في هذا الأمر الصبر وحسن العزاء.

ثمَّ أمر قَهرَمانه بقبض المال منه وبتجهيز الجارية بما يُشبهُها من الخدم والثياب والطيب، فجُهِّزت بنحو من ثلاثة آلاف دينار، وقال: هذا لك ولك عِوَضُها مما ألطفتنا، والله المستعان.

فقبض العراقي الجارية وخرج بها، فلما برز من المدينة قال لها: يا عُمارة! إنِّي والله ما ملكتُكِ قطُّ ولا أنت لي، ولا مثلي يشتري جاريةً بعشرة آلاف دينار، وما كنت لأَقدُمَ على ابن عمِّ رسول الله صلى الله عليه وآله فأسلبه أحبَّ الناس إليه لنفسي، ولكني دسيسٌ من يزيد بن معاوية، وأنتِ له وفي طلبك بعثَ بي، فاستَتري مني، وإن داخلني الشيطان في أمرك أو تاقت نفسي إليك فامتنعي.

ثمَّ مضى بها حتى ورَد دمشق، فتلقَّاه الناس بجنازة يزيد، وقد استُخلف ابنه معاوية بن يزيد، فأقام الرجل أيَّامًا ثمَّ تلطف للدخول عليه فشرح له القصة، ويُروى أنه لم يكن أحد من بني أمية يُعدَل بمعاوية بن يزيد في زمانه نُبلًا ونُسكًا، فلما أخبره قال: هي لك وكل ما دفَعه إليك من أمرها فهو لك، وارحل من يومك، فلا أسمع بخبرك في شيء من بلاد الشام.

فرحل العراقي ثمَّ قال للجارية: إنِّي قلت لك ما قلت حين خرجتُ بك من المدينة، فأخبرتك أنك ليزيد، وقد صرتِ لي، وأنا أشهد الله أنك لعبد الله بن جعفر، وإني قد رددتُك عليه، فاستتري مني.

ثمَّ خرج بها حتى قدم المدينة، فنزل قريبًا من عبد الله، فدخل عليه بعض خدمه فقال له: هذا العراقي ضيفُك الذي صنَع بنا ما صنع، وقد نزل العرصة لا حيَّاه الله. فقال عبد الله: مَه! أنزلوا الرجل وأكرموه.

فلما استقر بعث إلى عبد الله: جُعلت فداءك! إن رأيت أن تأذن لي أذنة خفيفةً لأُشافهَك بشيء فعلت. فأذن له، فلما دخل سلَّم عليه وقبَّل يده، فقرَّبه عبد الله، ثمَّ اقتص عليه القصة، حتى إذا فرِغ قال: قد والله وهبتُها لك قبل أن أراها وأضع يدي عليها، فهي لك ومردودةٌ عليك، وقد علم الله تعالى أني ما رأيتُ لها وجهًا إلا عندك. فبعث إليها، فجاءت وجاء بما جهَّزها به موفَّرًا، فلما نظرت إلى عبد الله خرَّت مغشيًّا عليها، وأهوى إليها عبد الله فضمَّها إليه.

وخرج العراقي وتصايح أهل الدار: عُمارة عُمارة. فجعل عبد الله يقول ودموعه تجري: أحُلمٌ هذا، أحَقٌّ هذا؟ ما أُصدِّق بهذا. فقال له العراقي: جُعلت فداءك! قد ردَّها عليك إيثارُك الوفاء وصبرُك على الحق وانقيادك له. فقال عبد الله: الحمد لله، اللهم إنك تعلم أني تصبَّرتُ عنها وآثرت الوفاء وأسلمتُ لأمرِك، فرددتَها عليَّ بمنك، فلك الحمد! ثمَّ قال: يا أخا العراق، ما في الأرض أعظمُ منَّةً منك، وسيجازيك الله تعالى.

وأقام العراقي أيَّامًا، وباع عبد الله غنمًا له بثلاثة عشر ألف دينار، وقال لقهرمانه: احملها إليه، وقل له: اعذر، وعلم أني لو وَصَلتُك بكل ما أملك لرأيتك أهلًا لأكثر منه. فرحل العراقي محمودًا وافر العرض والمال.

عاشق أخت زوجته

ذكر أبو عمر مُحَمَّد بن العباس، ونقلته من خطه، أخبرني رياح بن قطيب بن زيد الأسدي، ابن أخت قريبة أم البهلول، ابنة أباق الدبيرية الأسدية، أخت الركاض بن أباق الدبيري الشاعر، عن قريبة قالت: كان لعبد المخبل، وهو كعب بن مالك، وقال غير قريبة: هو كعب بن عبد الله من بني لأي بن شاس بن أنف الناقة، وهو مِن أهل الحجاز، ابنة عمٍّ له يُقال لها أم عمرو، وكانت أحب الناس إليه، فخلا بها ذات يوم، فنظر إليها وهي واضعةٌ ثيابها، فقال لها: يا أم عمرو! هل تَرَين أن أحدًا من النساء أحسنُ منك؟ قالت: نعم! أختي ميلاءُ أحسنُ مني. قال: فكيف لي بأن تُرينيها؟ قالت: إن علمتْ بك لم تخرُج إليك، ولكن تَختبئ في الستر وأبعث إليها.

قال: ففعلَت، وأرسلَت إليها، وهو في الستر، وجاءت ميلاء، فلما نظر إليها عشقها وترك أختها امرأته، وعارَضها من مكان لا تَحتسبه، فشكا إليها حُبَّها، وأعلمها أنه قد رآها. فقالت: والله يا ابن عم! ما وجدت بي من شيء إلا قد وجدتُ منك مثله. وظنَّت أمُّ عمرو امرأته أنه قد عشِق أختها فتبعتهما وهما لا يدريان حتى رأتهما قاعدَين جميعًا، فمضت تقصد إخوتها وكانوا سبعة، فقالت: إمَّا أن تُزوِّجوا كعبًا ميلاء، وإمَّا أن تغيّبوها

عني. فلما بلغه أن ذلك قد بلَغ إخوتَها هرَب، فرمى بنفسه نحو الشام وترك الحجاز. وقال وهو بالشام:

أفي كُلِّ يومٍ أنتَ من بارِح الهوى

إلى الشُّمِّ من أعلامِ ميلاءَ ناظِرُ

فروى هذا البيت رجلٌ من أهل الشام. ثمَّ خرج يريد مكة، فمر على أم عمرو وأختها ميلاء، وقد ضلَّ الطريق، فسلَّم عليهما، وسألهما عن الطريق. فقالت أم عمرو: يا ميلاء! صفي له الطريق، فذكر الرجل لما سمعها تقول يا ميلاء:

أفي كل يومٍ أنت مِن بارِح الهوى

إلى الشُّمِّ من أعلامِ ميلاءَ ناظِرُ

فتمثَّل به فعرفت الشعر، فقالت: يا عبد الله! مِن أين أنت؟ قال: أنا رجلٌ من أهل الشام. فقالت: فمِن أين رويتَ هذا الشعر؟ قال: رويته عن أعرابي بالشام. قالت: أو تدري ما اسمه؟ قال: اسمه كعب. قال: فأقسمَتا عليه أن لا يبرح حتى يراك إخوتنا فيكرموك، ويدلُّوك على الطريق فقد أنعمتَ علينا. فقال: إنِّي لأروي له شعرًا آخر، فما أدري أتعرِفانه أم لا؟ فقالتا: نسألك بالله إلا أسمعتنا إياه؟ قال: سمعته يقول:

خليليَّ! قد رُزْتُ الأمور وقِستها

بنفسي وبالفتيان كُلَّ مكانِ

فلم أُخفِ يومًا للرفيق ولم أجد

خليًّا ولا ذا البثِّ يستويان

من الناس إنسانان دَيني عليهما
مليَّان لولا الناس قد قَضَياني
منوعان ظلَّامان ما يُنصِفانني
بدلَّيهما والحُسنِ قد خَلَبَاني
يُطيلانِ حتى يَحسب الناس أنني
قُضيتُ ولا والله ما قَضَيان
خليليَّ! أما أمُّ عمرو فمنهما
وأمَّا عَن الأخرى فلا تسلاني
بُلينا بهجرانٍ ولم يُرَ مثلُنا
من الناس إنسانان يَهتجِران
أشدَّ مصافاةً وأبعد من قِلًى
وأعصى لواشٍ حين يُكتنفان
يُبيِّنُ طرفانا الذي في نفوسنا إذا
استُعجمَت بالمنطق الشفتان
فوالله ما أدري أكُلُّ ذوي الهوى
على شَكلِنا أم نحنُ مُبتلَيان
فلا تعجبا مما بي اليوم من هوًى
ففي كُلِّ يومٍ مثلُ ما تريان
خليليَّ! عن أي الذي كان بيننا من

الوصلِ أو ماضي الهوى تَسَلانِ

وكُنَّا كريمي معشرٍ حُمَّ بينَنا

هوًى فحفظناهُ بحُسن صيانِ

نذود النفوسَ الحائمات عن

الهوى وهُنَّ بأعناقٍ إليه ثَوانِ

سلاه بأمِّ العَمر منه، فقد برا به

السقمُ لا يَخفى وطول ضَمان

فما زادَنا بُعد المدى نقضُ مَرَّةٍ

ولا رجَعا من علمنا ببيان

خليليَّ! لا والله ما ليَ بالذي

تُريدان من هجر الصَّديق يدان

ولا لي بالهجرِ اعتلاءٌ إذا بدا

كما أنتما بالبين مُعتَلَيَان

قال: فنزل الرجل وحطَّ رحله، حتى جاءت إخوتُهُما فأخبَرَتاهم الخبر، وكانتا مُهتمتَين بكعب؛ وذلك أنه كان ابن عمِّهم وكان ظريفًا شاعرًا، فأكرموا الرجل ودلُّوه على الطريق، وخرجوا فطلبوا كعبًا بالشام فوجدوه، فأقبلوا به، حتى إذا صار إلى بلدهم نزل كعب في بيتٍ ناحيةً من الحي، فرأى ناسًا قد اجتَمعوا عند البيوت، فقال كعب لغلام قائم، وكان قد ترك بنيًّا له صغيرًا: يا غلامُ من أبوك؟ قال: أبي كعب. قال: فعلامَ يجتمعُ هذا الناس؟ وأحس فؤادُ كعب بشرٍّ. قال: يجتمعون على خالتي ميلاء، ماتت الساعة. قال: فزفر زفرةً خرَّ منه ميِّتًا، فدُفن إلى جانب قبرِها.

يقتل حبيبته وينتحر

ذكر أبو عمر مُحَمَّد بن العباس بن حَيُّوَيْهِ، ونقلته من خطه، حدَّثني هشام بن الكلبي عن أبي مسكين، قال: خرج ناس من بني حنيفة يتنزَّهون، فبَصُرَ فتًى منهم بجاريةٍ فعشقها، فقال لأصحابه: انصرِفوا حتى أقيمَ وأرسل إليها، فطلَبوا إليه أن يَكُفَّ وأن ينصرف، فأبى، وانصرف القوم، وجعل يُراسل الجارية حتى وقَع في نفسها، فأقبل في ليلةٍ إضحيان مُتقلِّدًا قوسًا، والجارية نائمةٌ بين أخوتها، فأيقظها، فقالت: يا فاسِق انصرف وإلا والله أيقظتُ إخوتي، فقاموا إليك فقتلوك. فقال: والله للموت أهون عليَّ مما أنا أفيه، ولكن أعطيني يدك أضعها على فؤادي وأنصرف. فأعطتْه يدها، فوضعها على فؤاده وصدره، ثمَّ انصرف. فلما كانت الليلة القابلة أتاها، وهي في مثل حالها، فقالت له مثل مقالتها الأولى وردَّ هو عليها مثل قولها، وقال: لك الله عليَّ إن أمكنتِني من شفتَيك أرتشفُهما أن أنصرف، ثمَّ لا أعود إليك. فأمكنتْه من شفتيها ثمَّ انصرف.

ووقع في نفسها مثل النار، ونَذِرَ به الحيُّ، فقالوا: ما لهذا الفاسق في هذا الحي ذاهبًا وجائيًا؟ انهضوا بنا حتى نُخرِجه، فأرسلت إليه أن القوم يأتونك الليلة، فالحذر. فلما أمسى خرج ناحيةً عن الحي فقعد على مرقبٍ له ومعه قوسُه وأسهُمُه، وكان أحد الرماة، وأصاب الحيَّ من النهار مطرٌ

فلهوا عنه، فلما كان في آخر الليل ذهب السحاب وطلع القمر، فخرجت تُريده، وقد أصابه الندى، فنشرت شعرها وكانت معها جاريةٌ من الحي، فقالت: هل لك في عباس، وهو اسمه، فخرجتا تمشيان فنظر إليهما وهو على المرقب، فظنَّ أنهما ممن يَطلُبه، فرمى بسهمه فما أخطأ قلب الجارية ففلقه، وصاحت الجارية التي كانت معها وانحدر من المرقب الذي كان عليه، فإذا هو بالجارية متضمِّخة بدمها، فقال عند ذلك وهو يبكي:

نعب الغُرابُ بما كرهتُ ولا إزالةَ للقدر

تبكي وأنتَ قتلتها فاصبر وإلا فانتحِر

قال: ثمَّ وجأ نفسه بمشاقصِه حتى مات. وجاء الحيُّ فوجدوهما ميتَين، فدفنوهما في قبر واحد.

رجل في ثوب امرأة

أنبأنا مُحَمَّد بن الحسين الجازري، حدَّثني أبي عن نمير بن قحيف الهلالي، قال: كان في بني هلال فتًى يُقال له بِشر، ويُعرف بالأشتر، وكان سيدا حسن الوجه شديد القلب سخيَّ النفس، وكان مُعجَبًا بجاريةٍ من قومه تُسمَّى جيداء، وكانت الجارية بارعة، فاشتُهر أمره وأمرها ووقع الشر بينه وبين أهلها، حتى قُتِلَت بينهم القتلى وكثرت الجراحات، ثمَّ افترقوا على أن لا ينزل أحدٌ منهم بقربِ الآخر.

فلما طال على الأشتر البلاء والهجر جاءني ذات يوم، فقال: يا نُميرُ! هل فيك من خيرٍ؟ قلت: عندي كُلُّ ما أحببت. قال: أَسعدني على زيارة جيداء، فقد ذهب الشوقُ إليها بروحي، وتنغَّصت عليَّ حياتي. قلتُ: بالحب والكرامة، فانهض إذا شئت.

فركبَ وركبتُ معه، فسِرنا يومنا وليلتنا حتى إذا كان قريبًا من مغرب الشمس نظرنا إلى منازلهم، ودخلنا شعبًا خفيًّا، فأنخنا راحلتَينا وَجِلَين، فجلس هو عند الراحلتَين، وقال: يا نمير! اذهَب بأبي أنت وأمي، فادخل الحي واذكر لمن لقيَك أنك طالبٌ ضالَّةً، ولا تُعرِّض بذكري بين شفةٍ ولسانٍ، فإن لقيتَ جاريتها فلانة الراعية فأَقرِئها مني السلام، وسلها عن الخبر، وأعلمها بمكاني.

فخرجتُ لا أُعذَرُ في أمري حتى لقيتُ الجارية، فأبلغتُها الرسالة وأعلمتها بمكانه، وسألتها عن الخبر، فقالت: بلى والله، مُشدَّدٌ عليها، متحفَّظٌ منها؛ وعلى ذلك فموعدكما الليلة عند تلك الشجرات اللواتي عند أعقاب البيوت.

فانصرفتُ إلى صاحبي، فأخبرته الخبر، ثمَّ نهضنا نقود راحلتينا حتى جاء الموعد، فلم نلبث إلا قليلًا إذا جيداءُ قد جاءت تمشي حتى دنت مِنَّا، فوثب إليها الأشتر فصافحها وسلَّم عليها، وقمتُ موليًّا عنهما، فقالا: إنَّا نقسم عليك إلا ما رجعت، فوالله ما بيننا ريبةٌ ولا قبيحٌ نخلو به دونك. فانصرفتُ راجعًا إليهما حتى جلست معهما، فتحدَّثا ساعةً ثمَّ أرادت الانصراف، فقال الأشتر: أما فيكِ حيلةٌ يا جيداء فنتحدث ليلتَنا، ويشكو بعضنا إلى بعض؟ قالت: والله ما إلى ذلك من سبيل إلا أن نعود إلى الشر الذي تعلَم. قال لها الأشتر: لا بدَّ من ذلك، ولو وقعَت السماء على الأرض. فقالت: هل في صديقك هذا من خير أو فيه مساعدة لنا؟ قال: الخير كله. قالت: يا فتى! هل فيك من خير؟ قلت: سلي ما بدا لك، فإني مُنتَهٍ إلى مرادك، ولو كان في ذلك ذهاب روحي.

فقامت فنزعت ثيابها فخلعتْها عليَّ، فلبستُها ثمَّ قالت: اذهب إلى بيتي فادخُل في خبائي، فإن زَوجي سيأتيك بعد ساعة أو ساعتين، فيطلُبُ منك القدح ليَحلب فيه الإبل، فلا تُعطه إياه حتى يُطيلَ طلبه، ثمَّ ارمِ به رميًا ولا تُعطه إياه من يدك، فإني كذا كنت أفعل به، فيذهب فيَحلب، ثمَّ يأتيك عند فراغه من الحلب والقدح ملآن لبنًا، فيقول: هاكِ غبوقك، فلا تأخذ منه حتى تُطيل نكدًا عليه، ثمَّ خذه أو دعه حتى يَضعه، ثمَّ لست تراه حتى

تُصبح إن شاء الله.

قال: فذهبتُ، ففعلت ما أمرتني به، حتى إذا جاء القدح الذي فيه اللبن أمرني أن آخذه فلم آخذه حتى طال نكدي، ثمَّ أهويتُ لآخذه وأهوى ليضعه، واختلفت يدي ويده، فانكفأ القدح، واندفق ما فيه. فقال: إن هذا طَمَاحٌ مُفرِطٌ. وضرب بيده إلى مقدم البيت، فاستخرج منه سوطًا مفتولًا كمَتنِ الثعبان المطوق، ثمَّ دخل عليَّ فهتك الستر عني وقبض بشعري، وأتبع ذلك السوط مَتني، فضرَبني تمام ثلاثين. ثمَّ جاءت أمه وإخوته وأختٌ له فانتزعوني من يده، ولا والله ما أقلعوا حتى زايلتْني روحي، وهممتُ أن أوجِرَه السكين وإن كان فيه الموت.

فلما خرجوا عني وهو معهم شددتُ ستري وقعدتُ كما كنتُ، فلم ألبث إلا قليلًا حتى دخلت أمُّ جيداء عليَّ تُكلِّمني وهي تحسبني ابنتَها، فاتقيتُها بالسكات والبكي، وتغطَّيت بثوبي دونها. فقالت: يا بنية! اتقي الله ربَّك ولا تُعرِّضي لمكروهٍ زوجك فذاك أولى بك، فأمَّا الأشتر، فلا أشترَ لك آخر الدهر.

ثمَّ خرَجتْ من عندي، وقالت: سأُرْسِل إليك أختك تؤنسك، وتبيت عندك الليلة. فلبثتُ غير ما كثير، فإذا الجاريةُ قد جاءت فجعلت تبكي وتدعو على مَن ضربني، وجعلتُ لا أكلِّمها، ثمَّ اضطجعت إلى جانبي، فلما استمكَنتُ منها شددتُ بيدي على فيها، وقلت: يا هذه! تلك أختك مع الأشتر، وقد قُطع ظهري الليلة في سببِها. وأنت أولى بالستر عليها، فاختاري لنفسك ولها، فوالله لئن تكلَّمتِ بكلمة لأصيحنَّ بجُهدي حتى تكون الفضيحة شاملةً.

ثمَّ رفعتُ يدي عنها، فاهتزَّت الجارية كما تهتزُّ القصبة من الزرِع، ثمَّ بات معي منها أملحُ رفيقً رافقتُه، وأعفُّه وأحسنُه حديثًا، فلم تزل تتحدَّث، وتضحك مني ومما بُليتُ به من الضرب حتى برق النور، إذا جيداء قد دخلَت علينا من آخر البيت، فلما رأتنا ارتاعت وفزِعت، وقالت: ويلك! من هذا عندك؟ قلت: أختك. قالت: وما السبب؟ قلت: هي تُخبرُك، ولعمر الله إنها لعالمة بما نزَل بي.

وأخذتُ ثيابي منها، ومضيتُ إلى صاحبي، فركبنا ونحن خائفان، فلما سُرِّيَ عنَّا روعُنا حدثتُه ما أصابني، وكشفت عن ظهري، فإذا فيه ما غرس الله من ضربةٍ إلى جانب أخرى، كل ضرب تُخرج الدم وحدها. فلما رآني الأشتر قال: لقد عظُمتْ صنيعتُك ووَجَبَ شكرُك، إذ خاطرت بنفسك، فبلَّغني الله مكافأتك.

أم البنين ووضّاح اليمن

أخبرنا أبو علي مُحَمَّد بن الحسين الجازري بقراءتي عليه، حدَّثنا مُحَمَّد بن حيان بن صدقة عن مُحَمَّد بن أبي السري عن هشام بن مُحَمَّد بن السائب، قال: كانت عند يزيد بن عبد الملك بن مروان أم البنين بنتُ فلان، وكان لها من قلبه موضع، فقُدم عليه من ناحية مصر بجوهر له قدر وقيمة، فدعا خَصيًّا له، فقال: اذهب بهذا إلى أم البنين، وقل لها: أُتيتُ به الساعة فبعثتُ به إليك. فأتاها الخادم فوجد عندها وضَّاح اليمن، وكان من أجمل العرب، وأحسنِه وجهًا، فعشقته أم البنين، فأدخلتْهُ عليها.

فإذا أحسَّت بدخول يزيد بن عبد الملك عليها أدخلته في صندوق من صناديقِها، فلما رأت الغلام قد أقبل أدخلتْه الصندوق، فرآه الغلام، ورأى الصندوق الذي دخل فيه، فوضع الجوهر بين يدَيها وأبلغها رسالة يزيد، ثمَّ قال: يا سيِّدتي، هبي لي منه لؤلؤةً! قالت: لا ولا كرامة، فغضبَ وجاء إلى مولاه، فقال: يا أمير المؤمنين إنِّي دخلتُ عليها وعندها رَجلٌ، فلما رأتْني أدخلته صُندوقًا، وهو في الصندوق الذي من صِفَتِه كذا وكذا، وهو الثالث أو الرابع. فقال له يزيد: كذَبتَ يا عدو الله! جئوا عنقه. فوجئ في عنقه ونحَّوه عنه.

قال: فأمهل قليلًا ثمَّ قام، فلبس نعله ودخل على أم البنين، وهي

تمتشط في خزانتها، فجاء حتى جلس على الصندوق الذي وصَف له الخادم، فقال لها: يا أم البنين! ما أحب إليك هذا البيت! قالت: يا أمير المؤمنين، أدخُله لحاجتي وفيه خزائني فما أردت من شيء أخذته من قُرب. قال: فما في هذه الصناديق التي أراها؟ قالت: حليي وأثاثي. قال: فهبي لي منها صندوقًا. قالت: كلها يا أمير المؤمنين لك. قال: لا أريد إلا واحِدًا، ولك عليَّ أن أُعطيكِ زنتَه وزِنَةَ ما فيه ذهبًا. قالت: فخذ ما شئت.

قال: هذا الذي تحتي. قالت: يا أمير المؤمنين، عدِّ عن هذا وخذ غيره، فإن لي فيه شيئًا يقعُ بمحبتي. قال: ما أريد غيره. قالت: هو لك. قال: فأخذه ودعا الفرَّاشين فحملوا الصندوق، فمضى به إلى مجلسه فجلس ولم يَفتحه، ولم ينظر ما فيه، فلما جنَّه الليل دعا غلامًا له أعجميًّا فقال له: استأجر أُجراء غُرَباء ليسوا من أهل المِصرِ. فجاءه بهم وأمرَهم، فحفروا له حُفيرة في مجلسه، حتى بلغوا الماء، ثمَّ قال: قدِّموا لي الصندوق. فأُلقي في الحفيرة، ثمَّ وضع فمه على شفيره، فقال: يا هذا! قد بلَغنا عنك خبر، فإن يكُ حقًّا فقد قطَعنا أثره، وإن يكُ باطلًا فإنما دفنًّا خشبًا.

ثمَّ أهالوا عليه التراب حتى استوى. قال: فلم يُر وضَّاح اليمن حتى الساعة. قال: فلا والله، ما بانَ لها في وجهه ولا في خلائقه شيءٌ حتى فرَّق الموت بينهما.

العاشق المظلوم

أخبرنا أبو القاسم علي بن المحسن التَّنُوخِي، حدَّثنا أحمد بن عيسى العكلي، عن ابن أبي خالد عن الهيثم بن عدي، قال: كان لعمرو بن دُوَيرة السَّحْمي أخٌ قد كَلِفَ بابنةِ عمٍّ له كلفًا شديدًا، وكان أبوها يكره ذلك ويأباه، فشكا إلى خالد بن عبد الله القَسري وهو أمير العراق أنه يسيء جواره، فحبَسه، فسُئل خالدٌ في أمرِ الفتى فأطلقه، فلبث الفتى مُدَّة كافًّا عن ابنة عمِّه، ثمَّ زاد ما في قلبه وغلَب عليه الحب، فحمل نفسه على أن تسوَّر الجِدار إليها، وحصل معها الفتى، فأحسَّ به أبوها فقبض عليه، وأتى به خالد بن عبد الله القسري وادَّعى عليه السَّرَق، وأتاه بجماعة يَشهدون أنهم وجدوه في منزله ليلًا، وقد دخل دخول السُّرَّاق، فسأل خالدٌ الفتى، فاعترَف بأنه دخل ليَسرِق، ليدفع بذلك الفضيحة عن ابنة عمِّه، مع أنه لم يَسرق شيئًا، فأراد خالد أن يقطعه، فرفع عمرو أخوه إلى خالد رُقعةً فيها:

أخالِدُ! قد والله أُوطئتَ عَشوةً

وما العاشِقُ المظلومُ فينا بسارِقِ

أقرَّ بما لم يأته المرءُ إنه رأى

القَطعَ خيرًا من فضيحة عاتقِ

ولولا الذي قد خفتُ مِن قَطعِ كفِّه

لأُلفيتُ في أمرٍ لَهُم غير ناطِقِ

إذا مُدَّتِ الغاياتُ في السَّبقِ للعُلى

فأنت ابن عبد الله أولُ سابِقِ

وأرسل خالدٌ مولًى له يسأل عن الخبر، ويتجسَّسُ عن جلية الأمر، فأتاه بتصحيح ما قال عمرو في شعره، فأحضر الجارية وأخذ بتزويجها من الفتى، فامتنع أبوها وقال: ليس هو بكفؤٍ لها. قال: بلى! والله إنه لكفؤٌ لها إذ بذلَ يدَه عنها، ولئن لم تزوّجها لأزوّجِنَّه إياها وأنت كاره. فزوَّجه وساق خالدٌ المهر عنه من ماله، فكان يُسمَّى العاشق إلى أن مات.

المحبَّان الوفيَّان

أخبرنا القاضي أبو القاسم علي بن المحسن، حدَّثني صديق لي ثقة: إنه كان ببغداد رجلٌ من أولاد النعم، ورث مالًا جليلًا، وكان يعشق قينة، فأنفق عليها مالًا كثيرًا ثمَّ اشتراها، وكانت تُحبه كما يحبُّها، فلم يزل يُنفِقُ ماله عليها إلى أن أفلسَ، فقالت له الجارية: يا هذا قد بَقينا كما ترى، فلو طلبتَ معاشًا؟

قال: وكان الفتى لشدَّة حُبِّه الجارية وإحضاره الأستاذات ليَزيدوها في صنعتها قد تعلَّم الضرب والغناء، فخرج صالح الضرب والحذق فيهما، فشاور بعض معارفه، فقال: ما أعرفُ لك معاشًا أصلحَ من أن تُغَنِّي للناس، وتَحمل جاريتك إليهم، فتأخذ على هذا الكثير، ويطيب عيشُك، فأنفَ من ذلك وعاد إليها فأخبرَها بما أُشيرَ به عليه، وأعلمها أن الموت أسهلُ عنده من هذا.

فصبرَت معه على الشدة مدة، ثمَّ قالت له: قد رأيتُ لك رأيًا. قال: قولي! قالت: تبيعني، فإنه يَحصلُ لك من ثمني ما إن أردتَ أن تتجرَ به، أو تُنفقه في ضيعة عِشتَ عيشًا صالحًا، وتخلَّصت من هذه الشدة وأحصلُ أنا في نَعمة، فإن مثلي لا يشتريها إلا ذو نعمة. إن رأيت هذا، فافعل.

فحملها إلى السوق، فكان أوَّل من اعترضها فتًى هاشميٌّ من أهل

البصرة، ظريفٌ، قد وردَ بغداد للعبِ والتمتُّع، فاستامها، فاشتراها بألفٍ وخمسمائة دينار عينًا. قال الرجل: فحين لفظتُ بالبيع، وأُعطيتُ المالَ، ندمتُ واندفعتُ في بكاءٍ عظيمٍ، وحصلت الجاريةُ في أقبح من صورتي، وجهدتُ في الإقالة فلم يكن إلى ذلك سبيل، فأخذتُ الدنانير في الكيس لا أدري أين أذهب لأن بيتي موحش منها، ووقع عليَّ من اللطم والبكاء ما هوَّسني.

فدخلتُ مسجدًا، وجعلتُ أبكي وأُفكِّر في ما أعمل، فغلبتْني عيني، فتركت الكيس تحت رأسي، فانتبهتُ فزِعًا، فإذا شاب قد أخذ الكيس وهو يعدو، فقمتُ لأعدو وراءه، فإذا رجلي مشدودةٌ بخيط قُنب في وتد مضروب في أرض المسجد، فلما تخلَّصتُ من ذلك حتى غاب الرجلُ عن عيني، فبكيتُ ولطمتُ ونالني أمرُ أشد من الأمر الأول، وقلت: فارقتُ مَن أحبُّ لأستغني بثمنه عن الصدقة، فقد صرتُ الآن فقيرًا ومفارِقًا.

فجئتُ إلى دجلة، فلففتُ وجهي بإزار كان على رأسي، ولم أكُن أُحسن العوم، فرميت نفسي في الماء لأغرَقَ، فظنَّ الحاضُرون أن ذلك لِغَلطٍ وقعَ عليَّ، فطرح قومٌ نفوسَهم خَلفي فأخرَجوني، فسألوني عن أمري، فأخبرتُهم، فمن بين راحمٍ ومُستجهلٍ إلى أن خلا بي شيخٌ منهم، فأخذ يَعِظُني، ويقول: ما هذا؟ ذهب مالُك فكان ماذا حتى تُتلف نفسَك، أو ما علمتَ أن فاعل هذا في نار جهنَّم! ولستَ أوَّل من افتقر بعد غِنى، فلا تفعل، وثِق بالله تعالى. أين منزلُك؟ قم معي إليه.

فما فارقني حتى حمَلَني إلى مَنزلي وأدخَلني إليه، وما زال يؤنسُني ويعظني إلى أن رأى مني السكون، فشكَرتُه، وانصرَف، فكِدتُ أقتلُ نفسي

لشدة وحشتي للجارية، وأَظلمَ منزلي في وجهي، وذكرتُ النار والآخرة، فخرجتُ من بيتي هاربًا إلى بعض أصدقائي القدماء، فأخبرتُه خبري، فبكى رِقَّةً لي، وأعطاني خمسين درهمًا، وقال: اقبل رأيي! اخرج الساعة من بغداد، واجعل هذه نفقة إلى حيثُ تجد قلبَك مُساعدك على قصده، وأنت من أولاد الكُتَّاب، وخطُّك جَيِّدٌ وأدبك صالح، فاقصد بعض العُمَّار واطرَح نفسك عليه، فأقل ما في الأمر أن يصرفَك في شُغلٍ أو يَجعلك مُحرِّرًا بين يديه وتعيش أنت معه، ولعلَّ الله أن يصنع لك.

فعملتُ على هذا، وجئت إلى اللتبيين، وقد قويَ في نفسي أن أقصد واسطًا، وكان لي بها أقاربُ فأجعل ذريعةً إلى التصرف مع عاملها، فحين جئتُ إلى اللتبيين إذا بزلَّال مقدَّمٍ، وإذا خزانةٌ كبيرةٌ وقماشٌ فاخرٌ كثيرٌ ينقل إلى الخزانة والزلال، فسألت عن ملاح يَحملني إلى واسط، فقال لي أحد ملَّاحي الزلال: نحن نحمِلُك في هذا إلى واسط بدرهمَين، ولكن هذا الزلال لرجلٍ هاشميّ من أهل البصرة، ولا يُمكننا حملك معه على هذه الصورة، ولكن تلبس من ثياب الملَّاحين وتجلسُ معنا كأنَّك واحدٌ مِنَّا.

فحين رأيت الزلال، وسمعتُ أنه لرجلٍ هاشميّ من أهل البصرة، طمعتُ أن يكون مُشتري جاريتي، فأتفرَّج بسماعها إلى واسط، فدفعتُ الدرهمين إلى الملاح، وعدتُ فاشتريتُ جبَّةً من جباب الملاحين، وبعتُ تلك الثياب التي عليَّ، وأضفتُ ثمنها إلى ما معي من النفقة، واشتريتُ خبزًا وأدمًا وجلستُ في الزلال، فما كان إلا ساعةٌ، حتى رأيتُ جاريتي بعينها، ومعها جاريتان تَخدُمانها، فسهُلَ عليَّ ما كان بي وما أنا فيه، وقلت: أراها وأسمع غناءها من ها هنا إلى البصرة، واعتقدتُ أن أجعل قصدي البصرة،

وطمعتُ في أن أُداخل مولاها، وأصير أحد ندمائه، وقلت: لا تُخليني هي من المواذِّ فإني واثقٌ بها.

فلم يكن بأسرع من أن جاء الفتى الذي اشتراها راكبًا ومعه عدة رُكبان، فنزلوا في الزلال وانحدرنا، فلما صِرنا بكَلواذى أُخرج الطعام فأكل هو. وصعدتُ فجلستُ معه، فدبَّرت أمرَه وضبطتُ دَخلَه وخَرجَه، وكان غِلمانُه يسرقُونَه، فأدَّيت إليه الأمانة.

فلما كان بعد شهر رأى الرجل دَخله زائدًا وخرجه ناقصًا، فحمدني، وكنتُ معه إلى أن حال الحول، وقد بان له الصلاح في أمره، فدعاني إلى أن أتزوَّج بابنته ويُشاركني في الدكان، ففعلتُ، ودخلتُ بزوجتي، ولزمت الدكان والحال تقوى، إلا أني في خلال ذلك مُنكسرَ النفس، مَيِّتُ النشاط، ظاهرُ الحزن، وكان البقال رُبَّما شربَ فيَجذبني إلى مساعدته، فأمتنع وأظهرُ أن سبب ذلك حزنٌ على موتى لي.

واستمرَّ بي الحالُ على هذا سنين كثيرة، فلما أن كان ذات يوم رأيتُ قومًا يجتازون بجُوَن ونَبيذٍ اجتيازًا مُتَّصِلًا، فسألت عن ذلك، فقيل لي: اليومُ يومُ الشعانين ويخرُجُ أهلُ الظرف واللعبِ بالنبيذ والطعام والقيان إلى الأُبُلَّة فيرَون النصارى، ويَشربون ويتفرَّجون، فدعتْني نفسي إلى التفرُّج، وقلت: لعلي أن أقفَ لأصحابي على خبر، فإن هذا مِن مَظانِّهم. فقلتُ لحميي: أريد أن أنظرَ هذا المنظَر، فقال: شأنك.

وأصلح لي طعامًا وشرابًا، وسلَّم إليَّ غُلامًا وسفينةً، فخرجت وأكلت في السفينة، وبدأت أشرَبُ حتى وصلت إلى الأُبُلَّة، وأبصرت الناس،

وابتدءوا يَنصرفون وانصرفت، فإذا أنا بالزلال بعينه في أوساط الناس سائرًا في نهر الأبُلَّة، فتأمَّلته، فإذا بأصحابي على سطحه، ومعهم عدَّة مغنيَّات، فحين رأيتُهم لم أتمالَك فرحًا، فصِرت إليهم، فحين رأوني عَرَفوني وكبَّروا وأخذوني إليهم، وقالوا: ويحَك أنتَ حي! وعانَقوني، وفرحوا بي وسألوني عن قصتي، فأخبرتهم بها على أتم شرح، فقالوا: إنَّا لما فقدناك في الحال، وقع لنا أنك سكرت، ووقعت في الماء فغرقت، ولم نشكَّ في هذا. فمزَّقتِ الجارية ثيابها، وكسرَت عودها، وجزَّت شعرها، وبكت ولطمت، فما منعناها من شيءٍ من هذا، ووردنا البصرة، فقلنا لها: ما تحبِّين أن نعمل لك؟ فقد كُنَّا وعدنا مولاكِ بوعد تمنعُنا المروءةُ من استخدامك معه في حال فقده أو سماع غنائك. فقالت: ما تُمكِّنوني من القوت اليسير، ولُبس الثياب السود، وأن أعمل قبرًا في بيتٍ من الدار وأجلس عنده وأتوب من الغناء، فمكنَّاها من ذلك، فهي جالسة عنده إلى الآن.

وأخذوني معهم، فحينَ دخلتُ الدار ورأيتُها بتلك الصورة، ورأتْني شهقَت شهقةً عظيمة، ما شككت في تلفها، واعتنقنا، فما افترقنا ساعةً طويلةً، ثمَّ قال لي مولاها: قد وهبتُها لك. فقلت: بل تُعتقُها، وتُزوِّجني منها كما وعدتني. ففعل ذلك ودفع إلينا ثيابًا كثيرةً وفُرشًا وقماشًا، وحمل إليَّ خمسمائة دينار، وقال: هذا مقدار ما أردتُ أن أجريه عليك في كلِّ شهر، منذ أول يوم دخولي البصرة، وقد اجتمع هذا لهذه المدة، فخذه، والجائزة لك مُستأنَفةٌ في كل شهر، وشيءٌ آخر لكُسوتك وكُسوة الجارية، والشرطُ في المنادمة وسَماع الجارية من وراء ستارة باقٍ عليك، وقد وهبتُ لك الدار الفلانية.

قال: فجئتُ إليها، فإذا بذلك الفرش والقماش الذي أعطانيه فيها، والجارية، فجئتُ إلى البقَّال فحدَّثته حديثي وطلَّقتُ ابنتَه، ووفيتُها صداقَها، وأقمتُ على تلك الحال مع الهاشمي سَنتَين، فصَلُحت حالي، وصرتُ ربَّ ضيعة ونعمة، وعادت حالي، وعدتُ إلى قريب مما كنت عليه، فأنا أعيش كذلك إلى الآن مع جاريتي.

نصيب وزينب

أخبرنا أبو طاهر أحمد بن علي السواق، حدَّثنا مُحَمَّد بن أحمد بن فارس، حدَّثنا عبد الله بن إبراهيم، حدَّثنا مُحَمَّد بن خلف المحولي، حدَّثنا عبد الله بن عمرو وأحمد بن حرب، حدَّثنا بنان هو ابن أبي بكر، حدَّثني مُحَمَّد بن المؤمل بن طالوت الوادي، حدَّثني أبي عن الضحاك بن عثمان الحزامي، قال: خرَجتُ في آخر الحج، فنزلت بخيمةٍ بالأبواء على امرأةٍ، فأعجبني ما رأيتُ من حُسنِها، فتمثَّلتُ بقول نُصيب:

بزينبَ ألمِم قبل أن يرحل الرَّكبُ

وقُل إن تملّينا فما مَلَّكِ القَلبُ

وقُلْ في تجنِّيها لكَ الذنبَ إنما

عتابُكَ من عاتبت فيما لهُ عَتْبُ

خليليَّ مِن كَعبٍ ألِمَّا هُديتُما

بزينبَ لا يَفقِدكُما أبدًا كَعبُ

وقولا لها: ما في البُعادِ لذي الهوى بُعادٌ،

وما فيه لصعدِ النَّوى شَعْبُ

فمَن شاء رام الوَصْل، أو قال ظالمًا

لصاحبه ذنْبٌ، وليسَ لهُ ذنبُ

قال: فلما سمعتْني أتمثَّل بالأبيات، قالت: يا فتى! أتعرفُ قائل هذا الشعر؟ قلت: نعم! ذاك نُصَيب. قالت: نعم، هو ذاك، أفتعرفُ زينب؟ قلت: لا! قالت: أنا والله زينب. قلت: فحيَّاك الله. قالت: أما إن اليومَ موعدُه من عند أمير المؤمنين، خرَج إليه عام أول، ووعَدني هذا اليوم، ولعلَّك لا تبرح حتى تراه.

قال: فما برحتُ من مجلسي، وإذا أنا براكب يَزول مع السراب، فقال: ترى خَبَبَ ذاك الراكب؟ إنِّي أحسبُه إيَّاه.

ثمَّ أقبل الراكب حتى أناخ قريبًا من الخيمة، فإذا هو نُصَيب، ثمَّ ثنى رِجله عن راحلته، فنزل ثمَّ أقبل، فسلَّم عليَّ، وجلسَ ناحيةً، وسلَّم عليها، وساءلها وساءلته فأحفيا، ثمَّ ساءلته أن يُنشدها ما أحدث من الشعر بعدها، فجعل يُنشدُها، فقلت في نفسي: عاشقان أطالا التنائي، فلا بدَّ أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة.

فقمتُ إلى راحلتي أشدُّ عليها، فقال لي: على رِسْلِكَ! أنا معك. فجلست حتى نَهَض، ونَهضتُ معه، فتسايرنا ساعة، ثمَّ التفت إليَّ فقال: قلتَ في نفسك محبَّان التقيا بعد طول تناءٍ، فلا بدَّ أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة. قلت: نعم! قد كان ذاك. قال: فلا وربِّ هذه البَنيَّة التي إليها نَعمَدُ ما جلستُ منها مجلسًا قط أقرَبَ من مجلسي الذي رأيتَ، ولا كان بيننا مكروه قط.

العاشق المتكتم

حدَّثنا إسحاق بن جعفر الفارسي: سمعتُ عمر بن عبد الرحمن يحكي عن بعض العمريين، قال: بينا أنا يومًا في منزلي إذ دخل عليَّ خادمٌ لي، فقال لي: رجلٌ بالباب معه كتاب. فقلتُ له: أدخله، أو خذ كتابه. قال: فأخذتُ الكتاب منه، فإذا فيه هذه الأبيات:

تجنَّبكَ البلا، ولقيتَ خيرًا

وسلَّمكَ المليكُ من الغُمومِ

شكَوْنَ بناتُ أحشائي إليكُم

هَوَايَ حينَ ألفَتْني كَتُوم

وحاولن الكِتابَ إليكَ في ما

يُخامِرُها فدَتكَ من الهُمُومِ

وهُنَّ يَقُلن يا ابن الجودِ:

إنَّا بَرِمنا مِن مُراعاةِ النُّجُومِ

وعندكَ لو مَننتَ شفاءُ سُقمي

لأعضاءٍ ضنينَ من الكُلُومِ

فلما قرأتُ الأبيات قلت: عاشق. فقلت للخادم: أَدخله. فخرج إليه

الخادم بالخبر فلم يجده، فقلت: أخطأتُ، فما الحيلة؟ فارتبتُ في أمره، وجعَل الفكر يتردد في قلبي، فدعوت جواريَّ كُلُّهنَّ ممن يَخرجُ منهن ومن لا يخرُج، فجمعتُهن ثمَّ قلت: أخبرنني الآن قصة هذا الكتاب.

قال: فجعل يَحلفن، وقلن: يا سيِّدنا ما نعرف لهذا الكتاب سببًا، وإنه لباطلٌ. ثمَّ قلن: من جاء بهذا الكتاب؟ فقلتُ: قد فاتَني. وما أردتُ بهذا القول لأني ضننتُ عليه بمَن يَهوى منكن، فمن عرفَت منكنَّ أمرَ هذا الرجل فهي له، فلتذهب إليه متى شاءت، وتأخذ كتابي إليه.

قال: فكتبتُ إليه كتابًا أشكره على فعله وأسأله عن حاله، وعما يقصده، ووضعتُ الكتاب في موضع من الدار، وقلت: من عرف شيئًا فليأخذه. فمكث الكتابُ في موضعه حينًا لا يأخذه أحدٌ، ولا أرى للرجل أثرًا، فاغتممتُ غمًّا شديدًا، ثمَّ قلت: لعله من بعض فتياننا. ثمَّ قلت: إن هذا الفتى قد أخبَرَ عن نفسه بالورَع، وقد قنع ممن يحبُّه بالنظر. فدبَّرتُ عليه، فحجبتُ جواريَّ من الخروج.

قال: فما كان إلا يومٌ وبعضُ آخر حتى دخل الخادم ومعه كتاب، فقلتُ له: ما هذا؟ قال: أرسل به إليك فلان. وذكر بعض أصدقائي، فأخذتُ الكتاب ففضضته، فإذا فيه هذه الأبيات:

ماذا أردتَ إلى رُوحٍ مُعلَّقَةٍ

عند التراقي، وحادي الموت يَحدوها

حثثتَ حاديها ظُلمًا فجَد بها

في السيرِ، حتى تولَّت عن تراقيها

حَجَبتَ من كان يَحيى عند رؤيته

رُوحي، ومن كان يَشفيني تلاقيها

فالنفسُ ترتاح نحو الظلمِ جاهِلةً

والقلبُ مني سليمٌ ما يؤاتيها

والله لو قِيلَ لي تأتي بفاحِشةٍ

وإن عُقباك دُنيانا وما فيها

لقُلتُ: لا والذي أخشى عُقوبتَه

ولا بأضعافِها ما كُنتُ آتيها

لولا الحياءُ لبُحنا بالذي كَتَمَت

بنتُ الفؤاد، وأبدَينا تمنّيها

قال: قلت لا أدري ما أحتالُ في أمر هذا الرجل، وقلت للخادم: لا يأتيك أحدُ بكتاب إلا قبضتَ عليه حتى تُدخِله إليَّ، ولم أعرف له بعد ذلك خبرًا.

قال: فبينا أنا أطوف بالكعبة، إذا أنا بفتًى قد أقبلَ نحوي، وجعل يطوفُ إلى جنبي ويلاحظني، وقد صار مثل العود. قال: فلما قضيتُ طوافي خرجتُ واتبعني، قال: يا هذا! أتَعرِفُني؟ قلت: ما أُنكرُك لسوء. قال: أنا صاحب الكتابين.

قال: فما تمالكتُ أن قبَّلت رأسه وبين عينَيه وقلت: بأبي أنت وأمي، والله لقد شغلتَ عليَّ قلبي، وأطلت غمّي لشدة كتمانك لأمرك، فهل لك

فيما سألت وطبت؟

قال: بارك الله لك وأقرَّ عينك، وإنما أتيتُك مُستحلًّا من نظرٍ كنت أنظرُه على غير حُكم الكتاب والسنة، والهوى داعٍ إلى كل بلاء، وأستغفر الله.

فقلت: يا حبيبي، أتحبُّ أن تصير معي إلى المنزل، فآنس بك وتجري الحُرمة بيني وبينك.

قال: ليس إلى ذلك سبيل، فاعذر وأَجب إلى ما سألتك.

فقلت: يا حبيبي! غَفَرَ الله لك ذنبك، وقد وهبتُها لك ومعها مائة دينار تعيش بها، ولك في كل سنة كذا وكذا.

قال: بارك الله لك فيها، فلولا عهودٌ عاهدت الله تعالى بها وأشياء وكَّدتُها على نفسي لم يكن شيء في الدنيا أحبَّ إليَّ من هذا الذي تَعرِضُه عليَّ، ولكن ليس إليه سبيل، والدنيا فانيةٌ منقطعة.

قال: قلتُ له: فأمَّا إذ أبيت أن تصير إلى ما دعَوتُك إليه، فأَخبرني من هي من جواريَّ حتى أُكرِمها لك ما بقيتُ.

فقال: ما كنتُ لأسمِّيها لأحدٍ أبدًا. ثمَّ سلَّم عليَّ، ومضى فما رأيته بعد ذلك.

موت الأحوص وجاريته بشرة

حدَّث أبو عمر بن حَيُّوَيْهِ، حدَّثني مُحَمَّد بن زياد الأعرابي، قال: خرَج الأحوَصُ بن مُحَمَّد إلى دمشق، ومعه جارية له يُقال لها بِشرَة، وكان شديدَ الإعجابِ بها، لا يكادُ أن يصيرَ عنها، وكانت هي أيضًا له من المحبَّة على أكثر من ذلك، فاشتكى الأحوصُ، واشتدَّت علَّته وحضرَتهُ الوفاة، فأخذت رأسه فوَضعته في حجرِها وجعلت تبكي، فقطرَ من دموعها على خدِّه، فرَفعَ رأسه إليها، فقال:

ما لجديدِ المَوتْ يا بِشر لذَّةٌ

وكُلُّ جَدِيدٍ تُستَلَذُّ طرائِفُه

فلا ضَيرَ إن الله يا بِشرَ سَاقَني

إلى بَلَدٍ جاوَرْتُ فيهِ خلائِفه

فَلَستُ وإن عيشٌ تَوَلَّى بجازِعٍ

ولا أنا مما حَمَّمَ الموتَ خائِفُه

ثمَّ مات من يومه، فجزعت عليه بِشرَةُ جزعًا شديدًا ولم تزَل تبكي وتَندبُه إلى أن شهقت شهقةً فماتت، فدُفِنَت إلى جانب قبره.

الفهرس